السُّفُورُ في الأدب العربي الحديث
دراسة أثر الأدب في توجيه المجتمع والتأثير في قضاياه

د. عبد الكريم بن عبد الله العبد الكريم
قسم الأدب – كلية اللغة العربية
جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية

السُّفُوْرُ في الأدب العربي الحديث
دراسة أثر الأدب في توجيه المجتمع والتأثير في قضاياه

د. عبد الكريم بن عبد الله العبد الكريم
قسم الأدب – كلية اللغة العربية
جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية

ملخص البحث:

تُعَدُّ قضية سفور المرأة من القضايا المجتمعية التي ألهَبت صراعاً حَاداً في أقطار إسلامية عديدة ،كمصر، والشام، والعراق، والمغرب العربي، وغيرها من بلدان المسلمين، وهي قضيةٌ قديمةٌ حديثة، تَبْدو حيناً، وتخبو حيناً، تَجَاوَزَتها بعض الأقطار، واستقبلتها بلدانٌ أخرى، وهي قضيةٌ ضمن قضايا عديدة تَتَمَحْوَر حول المرأة المسلمة، وهويتها، وشخصيتها، ويأتي هذا البحث الأدبي؛ ليُسَلِّط الضوء على مواقف الأدباء من قضية السُّفُور في الأدب العربي الحديث؛ رغبةً في قياس أثر الأدب في توجيه المجتمعات، وخلخلة بعض المسلمات، ومدى قدرة الأديب على إقناع المتلقي بفكرته، وقناعاته. وقد حاول الباحث أن يُمرِّر مدونته على بعض أدوات المنهج الحجاجي في محاولةٍ لقياس الأثر الأدبي بمنهجٍ حديثٍ، ورغبةً في جَسِّ نجاعة آليات المناهج النقدية الحديثة في الوصول إلى نتائج دقيقة وعميقة في دراسة الآثار الأدبية المصاحبة لقضية مجتمعية مثيرة للجدل.

مدخل :

تُعَدُّ قضية سفور المرأة من القضايا المجتمعية التي ألهبت صراعاً حَاداً في أقطارٍ إسلامية عديدة ،كمصر، والشام، والعراق، والمغرب العربي، وغيرها من بلدان المسلمين، وهي قضيةٌ قديمة حديثة، تبدو حيناً، وتخبو حيناً، تجاوزتها بعض الأقطار، واسْتَقْبَلَتْها بلدانٌ أُخرى، وهي قضيةٌ ضمن قضايا عديدة تتمحور حول المرأة المسلمة، وهويتها، وشخصيتها، وحدودها الشرعية في اللباس، والعمل، وقيادة السيارة، والرياضة، وقضايا كثيرة زعم بعضهم أنَّ النقاش فيها، وإثارتها تأتي ضمن إنصاف المرأة ممن ظلمها، والمطالبة بحقوقها المسلوبة، وواجباتها المنقوصة، وأحسب أنَّ تناول قضايا المرأة مطلوبٌ، وأنَّ بعض حقوقها مَنقُوْصَة، ولا أذودُ عن بعض الممارسات الخاطئة التي امتدت إلى تهميشها، وتقديس بعض العادات التي رأت دونيتها، وأثقلت كاهلها بما ليس من طبيعتها، وظلمتها، واحتكرت زواجها، وغير ذلك من صنوف الظلم التي يأباها الشرع، وترفضها الفطرة السَّوية.

غير أن تَضَخُّم النقاشات حول قضايا المرأة، وإقحامها في كل صغير وكبير صار دأباً لبعض المفكرين والمثقفين، الذين كانوا أكثر نسوية من النساء في طرح قضاياهم، وأصبحت المرأة في لبسها، وعاداتها، ورغباتها هي شغلهم الشَّاغل، فدارت رحى المعارك – منذ زمن غير قريب –بين المرأة الجديدة العصرية، والمرأة التقليدية المتخلفة. يقول الدكتور محمد محمد حسين: "وكانت المرأة هي أبرز هذه الموضوعات ، وأكثرها إثارة للجدل؛ وذلك لسعة الخلف بين المسلمين، وبين الغربيين فيما يتصل بها من عادات، ومن تقاليد، مما لا يُرجى معه اتفاق إلا بفناء أحد المذهبين في الآخر..."[1].

---

١ –الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر: ٢/٢٤٨.

ويأتي ناقدٌ مثل الدكتور سعيد بنكراد فيقرأ سيميائيات الأنساق الثقافية، فيقف مع الحجاب، ويحاول أن يتتبع هذه الظاهرة وفاق منهج نقدي ، ويزعم إعراضه عن الولوج إلى مناطق الإفتاء، والرأي الديني ، ويتلجلج في خاطره سؤالٌ يُعَنونُه لمبحثٍ من مباحث كتابه (وهج المعاني) ويتساءل عن الحجاب أهو حاجةٌ دينيةٌ، أم إكراهٌ ذكوري؟! وتَرِدُ في مقالته عبارات قَلِقَة حول الحجاب من مثل قوله: "...فنسبةٌ كبيرة من مسلمات ومسلمي هذا الوطن، لا يَرَوْنَ في الحجاب ضرورة دينية، بل ينظرون إليه– في كثير من الأحيان– بوصفه سلوكاً إيديولوجياً أملته حاجات اجتماعية لا علاقة لها بالدين"[1] . وقوله : "فرغم ترسانة الفتاوى المليئة بالترهيب والترغيب، ومحاسن التقوى، وهول الآخرة، لم يستطع الفقهاء، من كل الاتجاهات إقناع المرأة بالتخلي عن جزء أساسي من هويتها في الفضاء العمومي. لقد تحول الحجاب –حسب المقامات– من رمزٍ ديني صريح إلى يافطة للخداع، تكشف عن جسد موزع على كل الأهواء"[2].

فالخطورة تتجاوز الإبداع والإنتاج الأدبي–أحياناً– إلى القراءات النقدية التي تجاوزت قراءة الإبداع إلى قراءات الأنساق الثقافية والمجتمعية، بطريقة ينتهج فيها بعض النقاد نهجاً غربياً، يحاول أن يمنع نفسه من الاقتراب من حدود الشريعة، ومناطق الإفتاء، فيجد نفسه –شَعَرَ أم لم يَشْعُر– في منطقة من التوجيه ، والتقرير في قضايا شرعية وردت فيها أدلة قرآنية ونبوية صريحة، وتناولها علماء الأمة بعمق، ودراية ، فتَلْفَحُكَ بعض القراءات النقدية معتمدة التشكيك، وإثارة الاستفهامات، وزعزعة القناعات،

---

١ –وهج المعاني: سيميائيات الأنساق الثقافية، سعيد بنكراد: ١٨.

٢ –السابق : ٢٩.

كما هو نهج بعض المستشرقين المدسوسين.... فحينئذٍ نحتاج إلى نقد النقد، ليكون أداة من أدوات التصحيح، والتنقيح.

إنَّ التركيز على سفور المرأة ما هو إلا خطوة في طريقٍ طويلٍ يبدأ بكشف الوجه، وينتهي بخلع ملابس المرأة إلا مَا يَسْتُر عورتها المغلظة، وحينئذ يُنتَزعُ الحياء، ويَسْري الفساد، وتَتَحَطَّمُ الأخلاق، ويشتعل سُعَار الجنس، ويلهث الشباب من الجنسين خلف شهواتهم التي تَكْبُرُ عبر الزمن، كما تكبر كرة الثلج، وتصبح القلوب خِلْواً من الهمم العالية، والمشروعات الناهضة، والابتكار والعمل، والجد والرُّقي.

إنَّ الغرب الذي يؤوب إليه بعض مفكرينا شَعَرَ بمهانة المرأة المعاصرة في مجتمعه، وأدرك أن دعوات التحرُّر إنما هي دعوات لاستغلال المرأة، وإقصائها من عرشها، ومملكتها الخاصة، وإنهاكها في مجالات لا تتلاءم مع رقتها، ونعومتها، وحليتها. يقول بير داكو: "لم يسبق للمرأة أن كانت مسحوقةً، ومنهارةً، وخامدةً مثلما هي عليه الآن، ويمثل عصرنا أكثر العمليات دناءة في تاريخ المرأة، فالمظاهر خدّاعة، ذلك أنَّ الفخ مموه على نحو يثير الإعجاب...إنَّ الفَخَّ قام بعمله على نحو ممتاز...فالسمكة كانت جائعة، وكان يكفي إلقاء الصنارة في الماء حتى تنخدع بها"[1].

وفي مصر –على سبيل المثال– شغلت قضية ما يسمى بـ (تحرير المرأة) الوسط الشرعي، والفكري، والأدبي، والاجتماعي مدة من الزمن، فظهرت بوادر تلك القضية عند رفاعة طهطاوي ت ١٢٩٠هـ في كتابه الشهير (تخليص الإبريز في تلخيص باريز) ثم كَتَبَ محمد عبده ت ١٣٢٣هـ مقالاتٍ لمس فيه هذه القضية لمساً رفيقاً، إلى أن جاء قاسم

١–المرأة :بحث في سيكولوجية الأعماق، بير داكو: ١٧.

أمين ت١٣٢٦هـ فأثار ضجةً عارمةً في كتابيه: (تحرير المرأة صدر عام ١٨٩٩م) و(المرأة الجديدة صدر عام ١٩٠٠م)[١].

ولست هنا بصدد الحديث عن تلك القضية، فهي قضية طويلة الذيول، وتناولها العلماء والمفكرون بالتفنيد ، والتوضيح، حتى قيل: إنَّ عدد الكتب التي ردّت على أفكار قاسم أمين في كتابيه السالفين قد زادت على مئة كتاب[٢]، ولست –هنا– بصدد مناقشة قضية كبيرة كهذه القضية، فقد نوقشت نقاشاً شرعياً، وعقلياً، وفكرياً، وأنا هنا أجسُّ النبض حول تأثير الأدب بأجناسه المختلفة في توجيه المجتمع، وخَلْخَلَة المفاهيم، ومدى قدرته على الإقناع ، والانتصار لفريقٍ على آخر.

إنَّني حين أحاول دراسة قضية السفور في الأدب العربي الحديث أهْدِفُ إلى رصد قيمة التأثير الأدبي في المجتمعات العربية، وكيف استخدمه أصحابه أداة إصلاح، أو مِعول هدم، ومدى سريان التأثير الفكري للأدب في المعارك المضطرمة بين أقطاب التغريب، وأنصار الأصالة والمحافظة، واختياري لقضية السفور نابعٌ من الأثر الذي تركته تلك المعركة من أدب شعري ونثري امتدَّ إلى بلدان كثيرة، كمصر، والعراق، والشام، والمغرب العربي، وهي قضية مجتمعية يتكرر نظيرها في المجتمعات العربية اليوم، فإلى أي مدى يؤثر الأدب في توجيه تلك المجتمعات بتكويناتها الثقافية المختلفة؟ وهل يمكن أن يكون الإبداع الأدبي وسيلة من وسائل التأثير في ظل متغيراتٍ عصريةٍ سريعة استُخدِمت فيها أدوات جديدة؟ وهل يُرَوِّجُ الأدب الأفكار، ويُسَوِّقُهَا لأصحاب المذاهب والمبادئ المختلفة؟

---

١ –انظر: أزمة العصر، محمد محمد حسين:٢٠٢–٢٠٣.

٢ –انظر :مقدمة كتاب: هل يكذب التاريخ، عبدالله الداود :٩ –١٠.

أولاً-فاعلية الأدب في التأثير والتوجيه:

يقول الشاعر الإنجليزي وليام وردزورث ت ١٨٥٠م : "كلُّ شاعرٍ عظيمٍ مُعَلِّم، وأحبُّ أن يَعتبرني الناس مُعَلِّماً، أو لاشيء"[١] .وفي الجانب الآخر يَعُدُّ الفيلسوف الألماني كانت ت ١٨٠٤م المتعة الفنية غاية في ذاتها "فلا ينبغي أن نبحث وراءها عن غاية خلقيةٍ، أو اجتماعية"[٢].

هذه رؤية متباينة عند نقاد الغرب وأدبائهم حيال الغاية من الأدب، وأثره في الحياة، بين مَن يراه أداةً للتهذيب والتأثير، ويرى في الكلمة الأدبية كلمةً مسؤولة عن الرقي الفكري ، والأخلاقي، ومعالجة الخلل الاجتماعي، وتعميق التأثير الإيجابي في الحياة، وبين مَن يراه أداةً من أدوات الإمتاع والتسلية ، وإن حَمَلَ غثائية، أو سقوطاً فكرياً وأخلاقياً.

وفي الإسلام حدودٌ وضوابط لابد أن يستحضرها الأديب والناقد تنبع من قيمة الإبداع في الإسلام، ومسؤولية الكلمة المنطوقة، ودعوته إلى القيم السامية، وبُعْدِهِ عن الكَشف والإسفاف، والدعوة إلى الفجور، مع استجلاب الإمتاع والتسلية في حدود المباح. يقول أبو الحسن الندوي ت١٤٢٠هـ : "ولا خير في أدبٍ، ولا شعر إذا تَجَرَّدا عن تأثير عصا موسى "[٣].ويقول الشاعر الكبير محمد إقبال ت١٣٥٧هـ: "لا خير في نشيد شاعر، ولا في صوت مُغَنٍ، إذا لم يُضِفَا على المجتمع الحياة والحماس"[٤].

وقد تنبَّه بعض علماء الإسلام إلى ما يتركه الشعر من أثر يُسْهِمُ في التوجيه، وتكوين العداوات، أو الصداقات، أو بعث النفس على أخلاق دون أُخرى. يقول شيخ

---

١ –فن الشعر، إحسان عباس :١٧.

٢ –ما الأدب، سارتر، ترجمة محمد غنيمي هلال :٥٦.

٣ –نظرات في الأدب، أبو الحسن الندوي : ١٠٦.

٤ –السابق:١٠٦.

الإسلام ابن تيمية ت ٧٢٨هـ : "لمَّا كان الشعر مُستَفَاداً من الشُّعُور، فهو يفيد إشعار النفس بما يُحَرِّكُهَا، وإن لم يكن صدقاً، بل يورث محبةً، أو نُفْرةً، أو رغبة، أو رهبةً ؛ لما فيه من التخييل، وهذا خاصة الشعر، فهو ذو تأثيرٍ من جهة التحريك ، والإزعاج ، والتأثير ، لا من جهة التصديق، والعلم والمعرفة، ولهذا يُسَمُّونَ القول حَادِياً؛ لأنه يحدو النفوس أي: يبعثها ويسوقها، كما يحدو حَادِي العيس "[١].

وفي تفحص تراثنا الأدبي نجد ملحوظات عديدة دلَّت على أهمية الشعر بخاصة، والأدب بعامة في التأثير الفكري، والتوجيه المجتمعي، والرقي الأخلاقي، وأنَّ الأدب يَستَصحِبُ مع الإمتاع الفكرةَ السامية، والقيم الرفيعة، وأن دائرة القول الأدبي داخلة ضمن دائرة أوسع هي دائرة القول الواردة في قول الله –عز وجل– ﴿ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴾[٢] . وفي قول المصطفى –صلى الله عليه وسلم– حين سأله معاذ بن جبل– رضي الله عنه– يانبي اللَّهِ، وَإِنَّا لَمُؤَاخَذُونَ بِمَا نَتَكَلَّمُ بِهِ فَقَالَ: " ثَكِلَتْكَ أُمُّكَ يَا مُعَاذُ وَهَلْ يَكُبُّ النَّاسَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ، أَوْ عَلَى مَنَاخِرِهِمْ إِلَّا حَصَائِدُ أَلْسِنَتِهِمْ "[٣].

"ولَّما كان للشعر قوة عملية طلبية وَصَفَه في كتاب الله بلازمةٍ من الغواية"[٤]، وذلك في قوله تعالى ﴿ وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ ﴿٢٢٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴿٢٢٥﴾ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴿٢٢٦﴾ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا وَانتَصَرُوا مِن بَعْدِ مَا ظُلِمُوا وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ ﴾[٥].

---

١ –فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية : ٢/ ٤٣.

٢ -سورة ق :١٨.

٣ –سلسلة الأحاديث الصحيحة، ناصر الدين الألباني، رقم الحديث ١١٢٢، ٣/ ١١٤.

٤ –نحو منهج إسلامي في رواية الشعر ونقده، د.مصطفى عليان:١٠٠.

٥ –سورة الشعراء : ٢٢٤–٢٢٧.

وحين نربط الآية بسبب نزولها سنجد أنَّ الإسلام عُني بأثر الشعر، وفاعليته في المجتمع، وأثره في الفكر، وبخاصة في تلك المجتمعات التي تذوَّقت الشعر، وعدَّته مفخرة من مفاخرها، فالآية الكريمة نزلت في عددٍ من شعراء المشركين، كابن الزبعرى، وهبيرة بن وهب المخزومي، وأمية بن أبي الصلت، وأبي عزة الجمحي؛ ذلك أنهم هجوا رسول الله -صلى الله عليه وسلم- وصحبه الكرام -رضوان الله عنهم- وكان يجتمع إليهم أعرابٌ يستمعون أشعارهم، ويروونها، فهم: الغاوون[1].

وفي روايتهم لذلك الشعر صدٌّ عن الحق، وظلم للنبي الكريم -صلى الله عليه وسلم- وصحبه الكرام، ورفعٌ لمنزلة المشركين، المعادين لأهل الإسلام، ولذا جاء الاستثناء بعد ذكر الغاوين في صنف آخر من الشعراء نافحوا عن الحق، وذادوا عن الإسلام، وردوا الباطل على أهله، فكانت كلماتهم أشدَّ من وقع النبل، وقصائدهم أرمى من النصال، وهنا يحضر حسان بن ثابت، وعبدالله بن رواحة، وكعب بن مالك -رضوان الله عنهم-

وفي السياق نفسه من تأثير الشعر روي أن النبي -صلى الله عليه وسلم- نهى عن رواية بعض القصائد؛ إمَّا لما فيها من هجاء للرسول -صلى الله عليه وسلم- وصحبه الكرام -رضوان الله عنهم- وإعلاء لشأو المشركين، أو لما فيها من إسفاف وهجاء يقوم على قلب الحقائق، وخلع بعض الأوصاف على من لايَستَحِقُّها، واستخدام لغة الفحش والبذاءة التي ينبذها الإسلام، ويحذِّر منها، ومن أمثلة ما نُهِي عن روايته قصيدة أمية بن أبي الصلت التي رثى فيها قتلى بدر من المشركين، ومطلعها[2]:

---

١ -انظر:روح المعاني، للآلوسي:٢١/ ١٤٦.

٢ -انظر :تفسير الطبري "جامع البيان عن تأويل آي القرآن" :١٧/ ٦٧٥-٦٧٦.

ألا بَكَيْتَ على الكِرَا مِ بني الكِرَام أُولي الممَادِح

وقصيدة الأعشى في هجاء علقمة بن علاثة، ومطلعها[1]:

علقَمَ ما أنتَ إلى عَامِرٍ النَّاقضِ الأوتارَ والوَاتِرِ

وهي القصيدة التي قال عنها –صلى الله عليه وسلم– " يا حسَّان، لا تنشدني هذه القصيدة بعد مجلسي هذا، فقال: يا رسول الله، تَنهَاني عن رجلٍ مشركٍ مُقيم عند قيصر، فقال النبي –صلى الله عليه وسلم– يا حسان، أشْكَرُ الناس أشكرهم لله، وإنَّ قيصر سأل أبا سفيان بن حرب عني، فتناول مني مقالاً، وسأل هذا عني، فأحسَنَ القول..."[2].

وللأعشى قصيدة أُخرى هجا فيها علقمة طَارَت في الآفاق، وجزع منها جزعاً شديداً، وذكرت بعض الروايات أنه بَكَى بكاء شديداً، عندما استمع إلى قوله[3]:

تَبِيْتُونَ في المَشْتَى مِلاءً بُطُونُكم وجاراتكُم غَرْثَى يَبِتْنَ خَمَائصاً[4]

فقال: "لعنه الله، إن كان كاذباً. أنحن نَفعَلُ هذا بجاراتنا؟!"[5]

وبقي هذا البيت –الذي عدَّه بعض الدارسين من أشد أبيات الهجاء في ديوان الشعر العربي[6]– شاهداً من شواهد طغيان الشعر على القيم الأخلاقية أحياناً، وخلخلة المفاهيم المستقرة، وظلم الأشخاص والجماعات، وهذا كله داخل ضمن مظلة التأثير

---

١ –ديوان الأعشى، شرح وتعليق محمد محمد حسين: ١٣٩.

٢ –قضاء الحوائج،لابن أبي الدنيا، تحقيق محمد خير رمضان يوسف(باب شكر الصنيعة) رقم ٦٨: ٦٤–٦٩.

٣ –ديوان الأعشى، شرح محمد ناصر الدين: ٩٩.

٤ –غرثى: جائعة، الخمائص: ضمور البطن من شدة الجوع.

٥ –الأغاني، لأبي الفرج الأصفهاني: ٩/ ١١٧.

٦ –انظر :ديوان المعاني، لأبي هلال العسكري: ١/ ١٧١.

والتوجيه الخطير الذي يتركه الأدب، وقد ورد أن عبدالملك بن مروان قال: "يابني أمية، أحسابكم أنسابكم لا تُعرضُوهَا للهجاء، وإياكم ومَا سَار به الشعر، فإنَّه باقٍ ما بقي الدهر، والله ما يسُرُّني أني هُجيتُ بهذا البيت، وأنَّ لي ما طَلَعَت عليه الشمس:

تَبِيْتُونَ في المَشْتَى مِلاءً بُطُونُكم وجاراتكُم غَرْثَى يَبِتْنَ خَمَائصاً"[1].

وروي أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لكعب بن مالك: ما نَسِي ربُّكَ، وما كان ربك نسياً، شعراً قُلْتَهُ. قال: وما هو يا رسول الله؟ قال: أنشده يا أبا بكر. فأنشده أبو بكر –رضوان الله عليه–

زَعَمَتْ سَخِيْنَةُ أن ستَغْلبُ ربَّها ولَيُغْلَبَنَّ مُغالِبُ الغلاَّبِ[2]

ومن الشواهد على تأثير الأدب في التوجيه الديني، ما روي أن عمر بن الخطاب– رضي الله عنه– كان يأمر برواية قصيدة لبيد[3]:

إنَّ تَقوَى ربنا خير نَفَل وبإذن الله رَيْثِي وعَجَل

وحين يتمدّدُ أثر الشعر إلى التحفيز على الغربة، وترك الديار، ومغادرة الأهل والأحباب؛ طلباً للعيش، وبحثاً عن الرزق، فإنَّ النهي عن رواية هذا اللون من الشعر للأبناء يأتي دواء ناجعاً للحفاظ على تماسك أبناء البيت الواحد، والانصراف عن وعثاء السفر، ومرارة الغربة، فهذا عبدالله بن جعفر ينهى عن رواية قصيدة عروة بن الورد لأبنائه، والتي يقول في مطلعها[4]:

دَعيْني للغِنَى أسْعَى فإني رأيتُ النَّاسَ شرُّهم الفقير

---

١ –الأمالي، لأبي علي القالي: ٢/ ١٥٨.

٢ –انظر: دلائل الإعجاز، لعبدالقاهر الجرجاني: ١٧.

٣ –شرح القصائد السبع الطوال، لأبي بكر الأنباري، تحقيق: عبدالسلام هارون: ٥١٠.

٤ –انظر: الأغاني، لأبي الفرج لأصفهاني: ٣/ ٧٥.

وقد يكون الأدب محركاً للغرائز، وداعياً إلى الفسق، وجاذباً إلى الفجور، فهو يتجه- أحياناً- إلى تهييج العواطف، وتصوير الفحش، وتزيين المنكر، وربما استثمر الأديب أدوات الأدب لرسم لقطاتٍ ماجنة، مغرية، وقد تكاثرت النصوص الواردة من عددٍ من العلماء في التحذير من شعر بشار بن برد ت ١٦٨هـ في دلالة واضحة على أنَّ في الشعر من الطاقات العاطفية، والفكرية ما يَدْفَع إلى الولوغ في المعاصي والمنكرات . يقول مالك بن دينار ت١٢٧هـ : "ما شيءٌ أدْعَى لأهل هذه المدينة إلى الفسق من أشعار هذا الأعمى الملحد"[١]. ويقول واصل بن عطاء ت١٣١هـ في شعره أيضاً: "إنّ لمن أخدع حبائل الشيطان وأغوَاها لكلمات هذا الملحد الأعمى"[٢].

ولا أدري ما ذا سيقول مالك بن دينار، وواصل بن عطاء، وغيرهم من سلف هذه الأمة لو طالعوا بعض رواياتنا اليوم، وما تطويه من الخَنَا ، والفجور، وماتشتمل عليه من لقطاتٍ عارية، وتصويرٍ للفحشاء، وربما جَاوَزَه إلى علاقات الشذوذ والمثْلِيَّة ، وصور المنكرات بطريقة لا يستسيغها أصحاب الفِطَر السَّوية، وهذا الذي حَدَا بإبراهيم صبري أن يصف كتابات إحسان عبدالقدوس بأنها طوفان من اللحظات الشبقية، الأمر الذي " جعله ينجح تماماً في دسِّ أغلب كتبه تحت وسائد المراهقات، رغم ضخامة حجم هذه الكتب، وغلاء ثمنها غير المبررين"[٣].

وفي رسالة عمر بن الخطاب رضي الله عنه- وهو الناقد الحصيف، الذي تناقلت كتب النقد عدداً من ملحوظاته النقدية الدقيقة -إلى أبي موسى الأشعري-رضي الله عنه- ما يدل على أنَّ الصحابة الكرام تنبهوا إلى أثر الشعر في الحضِّ على الأخلاق

١-السابق :٣/١٨٤

٢-السابق.

٣- الصحافة والأقلام المسمومة، أنور الجندي:٢٣٢.

الحميدة، وتغيير الطبائع، وتبديل السلوك .يقول عمر بن الخطاب–رضي الله عنه– في رسالته: "مُر من قِبَلَكَ بتعلم الشعر فإنَّه يحل عقدة اللسان، ويُشَجّع قلب الجبان، ويُطْلِق يد البخيل ، ويحضٌّ على الخلق الجميل"[1].

ومما لا ريب فيه أنَّ العرب أدركوا ذلك الأثر الذي يتركه الأدب بعامة، والشعر بخاصة في الأخلاق، والسلوك، فانصرفت جملة من وصاياهم إلى تعليم الشعر للأبناء، وانتقاء الجيد منه؛ رغبة في زيادة الملكة اللغوية، والتحفيز على مكارم الأخلاق، وقيم الرجولة. ومن تلك الوصايا وصية عمر بن الخطاب الشهيرة إلى ساكني الأمصار التي قال فيها : " أمَّا بعد، فعلِّمُوا أولادكم العَومَ ، والفروسة، ورووهم ما سَارَ من المثل، وحَسُنَ من الشعر"[2] . ويقول أيضاً : "اروا من الشعر أعفَّه، ومن الأحاديث أحْسَنَهَا..."[3].

وبَالغَ بعضهم في التحذير من أثر الشعر حتى نهى عن تعليم البنات الشعر، فالشعر يُخَاطِب الوجدان، ويُهَيج العواطف، ويَسْتَمِيل القلوب... والنساء إلى خطاب العاطفة أدنى، وقد روى الجاحظ ت ٢٥٥هـ في (البيان والتبيين) قول أحدهم : "لا تُعَلِّمُوا بناتكم الكتاب، ولا تروُّوهن الشعر، وعَلِّمُوهُنَّ القرآن، ومن القرآن سورة النور"[4].

وفي مقدمة كتاب (دلائل الإعجاز) لعبدالقاهر الجرجاني ت ٤٧١هـ أو ٤٧٣هـ مناقشات بارعة حول أثر الشعر، ومناقشة ذمِّه، والتأويلات التي دارت حول بعض الآيات، والأحاديث، والآثار، وبعض الشواهد الدَّالة على مكانة الشعر في التوجيه، والتأثير، فهو الذي "قيَّد على الناس المعاني الشريفة، وأفادهم الفوائد الجليلة، وترسَّل بين الماضي

---

١ –العمدة، لابن رشيق القيرواني: ٢٩/١.

٢ –البيان والتبيين، الجاحظ: ١٨٠/٢.

٣ –جمهرة أشعار العرب، للقرشي: ١٥٩/١.

٤ –البيان والتبيين :١٨٠/٢.

والغابر، ينقل مكارم الأخلاق إلى الولد عن الوالد، ويؤدي ودائع الشرف عن الغائب إلى الشَّاهد، حتى ترى به آثار الماضين، مخلَّدة في الباقين، وعقول الأولين مردودةً في الآخرين، وترى لكل من رَامَ الأدب، وابتغى الشرف، وطلب محاسن القول والفعل، مَنَاراً مرفوعاً، وَعَلَماً منصوباً، وهادياً مرشداً، ومُعلِماً مُسَدَّداً، وتجد فيه للنائي عن طَلَب المآثر، والزاهد في اكتساب المحامد، داعياً ومحرضاً، وباعثاً ومُحضِّضاً، ومذكراً، ومُعرِّفاً، وواعظاً ومُثَقفاً..."[1].

إنني حين أنقل هذه النصوص أغْرِفُ من بحرٍ لا ساحل له من نصوص كثيرة دالة على أثر الأدب في التوجيه، والتأثير، وتغيير القناعات، واستجلاب العداوات، مع تفاوت العصور، واختلاف الأزمنة والأذواق، ولذا كان الأدب مدخلاً لأصحاب الأفكار المنحرفة، والقيم الدنيئة، ومن أرادوا بثَّ الشبهات، وتحريك الشهوات في نفوس أبناء المسلمين من خلال بوابة الأدب الكبيرة، ولذا يقول المستشرق كاممفاير: "...وليس عجيباً أن نَرَى كل محاولات الانتقاص على قيم الأمة، وعقائدها جاء عن طريق الأدب، وكانت الصحافة منطلقه ومسرحه"[2].

ويقول محمود شاكر ت ١٤١٨هـ في مقدمة كتابه (أباطيل وأسمار) مبيناً أثر الأدب في ميدان المعركة الفكرية المستعرة بين أتباع الغرب، وبين علماء الأمة الداعين إلى الأصالة، والمحافظة: "ويزيد الأمر بشاعة أنَّ الذين هم هدفٌ للتدمير، والتمزيق، والنسف لا يكادون يتوهمون أنَّ ميدان الثقافة والأدب والفكر هو أخطر ميادين هذه الحرب الخسيسة، الدائرة على أرضنا من مشرق الشمس إلى مغربها، ولا أنَّ معارك الثقافة، والأدب، والفكر متراحبَةٌ لا تُحدُّ بحدود، ولا أن أكثرها يأتي موقتاً توقيتاً دقيقاً... ولا أنَّ

---

١ –دلائل الإعجاز، لعبدالقاهر الجرجاني: ١٥–١٦.

٢ –الصحافة والأقلام المسمومة، أنور الجندي: ١٥٦.

أمضى سلاح في يد عدونا هو سلاح الكلمة، الذي يحمله رجالٌ من أنفسنا، ينبثُّونَ في كلِّ ناحية، ويَعْمَلونَ في كل ميدان، ويَنْفُثون سُمُومهم بكل سبيل، ولا أنَّ بعض هؤلاء الرجال يأتون ما يأتون عن علمٍ، وبعضهم قد أخذ من غفلته، فهو ماضٍ في طريقه على غير بينة"[1].

والدكتورة نازك الملائكة تدرك سريان الأثر الأدبي في نفوس الفتيات، وتلحظ الأثر العميق الذي تركه كتاب (ألف ليلة وليلة) على الأنموذج الأمثل للمرأة، فتقول: "لقد تَرَكَت الشخصيات النسوية في كتاب(ألف ليلة وليلة) نموذجاً سيئاً للمرأة العربية، هو نموذج الجارية التي لايهمها إلا لباسها، ولا ترى في نفسها أكثر من متعة الرجل، تعيش بغرائزها، وعليها أن تكون جميلة، وأن تسلِّي الرجل، وتَطْهو له الطعام السائغ.وهذا النموذج مازال المُتحكم في حياة المرأة العربية..."[2]

إنَّ الأديب وهو يبث أدبه الشعري، أو يسطِّر روايته، أو يكتب رسالته يطوي على عقيدة، ومَبْدَأ يَأْرِزُ إليه، ويَركَنُ إلى إشاعته، والدعوة إليه، وهذه الأفكار المُعْلَنة، أو المُضمرة تفوح من أردان النص الأدبي، وحتى النقدي، وهنا يصبح الأدب بأجناسه المتعددة ساحة لبثِّ الأفكار، ومناقشة الآراء، وخلخلة المفاهيم، ورفع الوعي، ودعم الفِكْر، وتوهين المبادئ. يقول أحد الدارسين : "والمتأمل في أيِّ إنتاج أدبي يجد صاحبه لابد أن يطوي في قرارة نفسه على عقيدة معينة، وتجول في عقله أفكار معينة، ومن المسلم به بداهةً أن هذه العقيدة، وهذه الأفكار هي المحضن الأساسي لما ينتجه الشاعر، أو القاص، أو الناقد ..."[3].

---

١ –أباطيل وأسمار، محمود شاكر (المقدمة) : ٩–١٠.

٢ –مآخذ اجتماعية على حياة المرأة العربية، د.نازك الملائكة: ٣٧.

٣ –الانحراف العقدي في أدب الحداثة وفكرها، د.سعيد بن ناصر الغامدي: ٤٥/١.

وقضية السفور تمثل أنموذجاً حياً لقضية من القضايا التي دارت رحى المعارك الفكرية فيها بين أنصار السفور، وأدعياء الحرية، ومن رأوا الخيرية في متابعة المرأة المسلمة للأنموذج الغربي، وآخرون نبذوا هذه الوجهة، ورأوا في حجابها عزةً لها، وميزة تنماز بها عن غيرها، ولن يكون حجابها عائقاً عن تقدمها في مجالات العلم والمعرفة، واتساق ذلك مع ما حباها الله من قدرة فريدة على رعاية أبنائها وزوجها، وقيامها بكامل حقوقها...

إنَّ هذه القضية تمثل مجسّاً من مجسات الأثر الأدبي في الحياة الفكرية، والاجتماعية، ولذا أردت أن تكون عينةً للبحث عن قضية من قضايا الصراع في الأدب الحديث، وكيف يُوَظَّفُ الأدب في قضايا الفكر والمجتمع، ولنا أن نلحظ اليوم كيف يُزَجُّ بالرواية –التي يَلفظها الغثُّ والسمين، والأديب، والمتصنّع– في قضايا الفكر والمجتمع، وتُلْحَظ في عدد غير قليل منها صنوفٌ من التجاوزات على الدين، والقيم، والأخلاق، وعلى هذا فإن استدعاء الاتجاه الأخلاقي في النقد مطلب ملحٌ في هذا الزمن، وهو منهج تبناه عددٌ من النقاد القدامى، كابن سلاَّم ت ٢٣٢هـ، وابن قتيبة ت ٢٧٦هـ، وابن الأنباري ت ٣٠٤هـ، والباقلاني ت ٤٠٣هـ، وابن حزم ت ٤٥٦هـ، وغيرهم من النقاد في دلالة ظاهرة على أن الاتجاه الفني الجمالي، لم يكن فريداً في النقد، وإنما استصحب معه اتجاهاً أخلاقياً يرى في الفن رسالةً أخلاقيةً ساميةً نافعةً[1].

* * *

١ –انظر: من صيد الخاطر، د.وليد قصاب:٥١–٥٢.

السفور والحجاب في التراث الأدبي القديم:

لفظة السُّفُوْر تمرُّ في التراث الأدبي القديم بمعناها المستخدم اليوم، يقول الخليل ابن أحمد ت ١٧٠هـ في كتاب العين: " والسُّفُور:سَفْرُ المرأةِ نِقابها عن وجهها، فهي سَافِرٌ، وهنَّ سوافِر"[١] ويستشهد بقول توبة بن الحمير:

وكنتُ إذا ما جِئتُ ليلى تَبَرْقَعَت فقد رَابَني منها الغَدَاةَ سُفُورُها

والسُّفُور ملازم للحجاب، فهما ضدان لا يجتمعان، وفي تراثنا القديم دلائل كثيرة على امتداح المرأة بحشمتها، وحجابها، ولمزها إذا كشفت عن وجهها، وأسفرت عن محاسنها، وقد رصد الدكتور يحيى الجبوري في كتابه (الملابس الجاهلية في الشعر الجاهلية) عدداً من الألبسة التي تحتجب بها المرأة في الجاهلية، كالخمار، والبُرقع، والخِفَاء ، وهو "رداء تلبسه العروس على ثوبها فتخفيه به، وكل ما سَتَرَ شيئاً فهو له خفاء"[٢].

ولقَبُ ذي الخمار أُطلِقَ على عددٍ من الجاهليين منهم: عوف بن الربيع، لُقِّب بذي الخمار؛ لأنه قاتل في خمار زوجته، وأبلى بلاء شديداً في المعركة، وأشار إليه خصومه بهذا الاسم[٣].

وهند بنت صعصعة سميت بذات الخمار أيضاً؛ لأنها وضعت خمارها ، وافتخرت بقولها: "من جاءت من نساء العرب بأربعة، كأربعة يحلُّ لي أن أضع خماري معهم فلها صرمتي: أبي صعصعة، وأخي غالب، وخالي الأقرع، وزوجي الزبرقان بن بدر"[٤].

---

١ –كتاب العين (باب السين) : ٢٥١/٢.

٢ –الملابس في الشعر الجاهلي، د.يحيى الجبوري:١١٨.

٣ –القاموس المحيط، للفيروز آبادي "خمر".

٤ –النقائض، لأبي عبيدة، تحقيق :بيفان:٢٦٤.

والنابغة الذبياني يؤكد حياء المرأة ، وحرصها على الاحتجاب من الغرباء؛ وذلك حين يُفَاجِئ جاريةً بالدخول ، فتشدُّ خمارها، وتتقي نظراته بمعصمها، أو كفها، فيلتقط تلك الصورة؛ ليوظِّفها توظيفاً فنياً بارعاً، كعادة الشعراء النابغين، فيقول أبياتاً ذاعت في ديوان الشعر العربي. يقول[1]:

سَـقَطَ النَّـصِيْفُ ولـم تُـرِدْ إسـقاطَه بمُخَـضَّبٍ رَخِـصٍ كـأنَّ بنَانَـه
بمُخَـضَّبٍ رَخِـصٍ كـأنَّ بنَانَـه عـنمٌ يكـادُ مـن اللَّطَافـةِ يُعْقَـدُ

(والقناع) يستخدمه الشاعر الجاهلي كناية عن تخفي المرأة، واستتارها عن الرجل الغريب، ولذا يقول عروة بن الورد[2]:

فِرَاشِي فِراشُ الضَّيْفِ والبيتُ بيتُهُ ولم يُلْهِنِي عنه غَزَالٌ مُقَنَّعُ

وحين تحافظ المرأة على خمارها، وتصون عفتها، وتحمي حياءها، فإنها تكون غايةً لإعجاب الشعراء ، ومَرْمَى ممادِحهم ،كقول الشنفرى[3]:

لَقَد أعجَبَتني لا سَقوطاً قِناعُها إذا ما مَشَت وَلا بِذاتِ تَلَفُّتِ

ويؤكِّد هذا المعنى دريد بن الصمة في قوله[4]:

من الخَفَراتِ لا سَقُوْطاً خِمَارُها إذا بَرَزَت ولا خَروجَ المُقيَّدِ

---

١ –ديوان النابغة الذبياني، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم:٩٣.

٢ –ديوان عروة بن الورد، شرح ابن السكيت:٦٨.

٣ –المفضليات :١٠٩.

٤ –ديوان دريد بن الصمة، تحقيق:عمر عبدالرسول :٥٨.

وإذا ما تهاونت المرأة في حجابها، وأظهرت محاسنها استيقظت الفتن في نفس الرجل، وجبذه الهوى، وغرق في لجٍ من الخيالات والأوهام ، وهنا ترد صيغة (ميلاء الخمار) للتعبير عن هذا الصنف المُغْري، كما في قول جران العود[1] :

وفي الحيِّ ميلاءُ الخِمَارِ كأنَّها ... مهاةٌ بهَجْلٍ من أديمٍ تعَطَّفُ
شمُوسُ الصِّبَا والأنسِ مخطوفة الحشَا ... قَتُولُ الهوى لو كانتِ الدارُ تُسْعِفُ

وفي المسجد الحرام حين تطوف المرأة في أقدس البقاع، ويحوطها الحجاج والمعتمرون، والذاكرون الله كثيراً، والذاكرات تجد صورة لعفة المرأة ، وتمسُّكِهَا بحجابها حتى في هذا الموضع الذي لا يجد فيه أغلب المسلمين مجالاً للهو، والعبث، فرهبة المكان، وقدسية العبادة، ومضاعفة الإثم تحجب عبث العابثين إلا من رجل أعمى الله بصيرته، وطمس قلبه، تأمل قول الحارث بن خالد المخزومي يصف نساءً يطفن بالبيت العتيق وقد احتجبن، ومالت حجُبُهنَّ من شدة التعب. يقول[2]:

يَقْعُدْنَ في التَّطْوَافِ آونةً ... ويطُفْنَ أحياناً على فَتْرِ
ففرغْنَ من سبعٍ وقد جُهِدتْ ... أحشاؤهنَّ موائل الخُمْرِ

ومسكين الدارمي ت ٩٠هـ يسهم في بيع أخمرة سوداء، جاء بها تاجرٌ كوفي إلى المدينة، فباعها إلا السوداء، فشَكَا إلى مسكين –وكان مسكين تنسك، وترك الشعر والغناء– فقال: "لا تهتم، فإني سأنفِقُهَا لك حتى تبيع جميعها–إن شاء الله– ثم قال:

---

١ ديوان جران العود النميري، رواية أبي سعيد السكري :١٥.
٢ –الأغاني : ٣/ ٢١٦.

قُــلْ للمَلِيْحَــةِ فــي الخِمَــارِ الأســودِ ... مــــاذا صَـــنَعْتِ بزاهــــدٍ مُتَعَبِّــــدِ
قــد كــان شَــمَّرَ لــلصَّلاة ثيابــه ... حتــى عَرَضــتِ لــه ببــابِ المــسجدِ
رُدِّي عليـــــه صـــــيامَه وصـــــلاتَه ... لا تَقْتُلِيــــهِ بحـــقِّ ديـــنِ محمـــدِ[1]

فشاع قول الدارمي في الناس، فلم يبق في المدينة امرأة إلا ابتاعت منه، حتى نفد ماكان مع الكوفي بفضل قول مسكين، الذي استطاع أن يقوم بعملٍ إشهاري للخمار الأسود، يوازي ماناراه اليوم من إعلانات تجارية تُدفع عليها مئات الآلاف من الريالات مقابل تسويق سلعة من السلع، فاتخذ مسكين من الشعر أداة ناجعة للتسويق، فجعل المرأة الجميلة تزداد ملاحة بحجابها الأسود، وجعل التقي الصالح ينشغل بها عن عبادته...

إنَّ هذه الشواهد – وغيرها كثير– دالةٌ على أنَّ العرب عرفوا الحجاب منذ العصر الجاهلي "ولعلَّ هذا من بقايا الحنيفية السمحة التي تلقاها عرب الجاهلية عن ملة إبراهيم–عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام–كما تلقوا الختان والعقيقة، وغيرهما"[2] وهي دالة على فطرة المرأة النازعة إلى الحياء، والعفاف، والستر حتى جاء في أمثالهم "الموت الفَادِح خيرٌ من الزِّي الفَاضِح"[3].

ولا يعني هذا نفي التبرج بالكلية عن تلك العصور، فإلى جانب الحجاب، والستر عرفوا ألواناً من التبرج والسفور، وقد جاء في محكم التنزيل: {ولا تَبرجْنَ تَبَرُّجَ الجاهلية

١–بهجة المجالس وأنس المجالس وشحذ الذهن والهاجس، لأبي عمر يوسف بن عبدالله القرطبي : ٥٦٠/١.

٢–عودة الحجاب ،محمد إسماعيل المقدم : ٣ /٧٨.

٣–الإمتاع والمؤانسة، لأبي حيان التوحيدي:٢٥٦.

الأولى}[1] قال القرطبي ت ٦٧١هـ : "أَيْ إِذَا خَرَجْتُنَّ مِنْ بُيُوتكُنَّ: قَالَ : كَانَتْ لَهُنَّ مِشْيَة وَتَكَسُّر وَتَغَنُّج ، يَعْنِي بِذَلِكَ الْجَاهِلِيَّة الْأُولَى فَنَهَاهُنَّ اللَّه عَنْ ذَلِكَ"[2].

إنَّ هذا المسح السريع، والإطلالة العاجلة على الحجاب في التراث العربي القديم ليؤكِّدُ أنَّ المرأة بفطرتها تَأرز إلى الحياء، والحشمة، وتميل إلى ستر مفاتنها، وتغطية محاسنها، والشعراء والأدباء يوظفون الحجاب على حسب حالاتهم، فتارةً يتخيلون ماوراءه، وأُخرى يبحثون عن سقوطه، وأحياناً يجدون في ميلانه سانحةً لاختطاف نظرة غير مشروعة، وفي أحيان كثيرة يمتدحون حشمة المرأة ، واختمارها، وقلة خروجها من خبائها، وسنجد في العصر الحديث معارك أدبية أوقدتها هذه القضية الاجتماعية المُتجدِّدة ، ولعلي أحاول أن أُلَمْلِمَ الحديث في تلك القضية، وأستجلي أدواتها؛ راغباً في البحث عن قدرة الأدب بأجناسه المختلفة في التأثير، والتغيير، والإقناع.

مواقف الأدباء في العصر الحديث من قضية السفور[3]:

لا أريد –هنا– أن أخوض في المعارك الفكرية، والعلمية التي دارت رحاها بين المؤيدين، والمعارضين لسفور المرأة في بلدان إسلامية عديدة، فقد قام عددٌ من العلماء، والمفكرين، والمؤرخين برصد هذه الظاهرة، وتوثيقها، ومناقشة أدلتها، وإبراز الجهود العلمية والثقافية التي حشدها كل طرف ،لإثبات رأيه، وتوضيح موقفه[4].

١سورة الأحزاب: ٣٣.

٢ –الجامع لأحكام القرآن :١٧ /١٤٣.

٣ –أردت من هذا المبحث توصيف موقف الأدباء عبر إيراد عدد من النماذج التي تمثل توجهات الأدباء إزاء هذه القضية، واقتصرت على التدليل والتمثيل، وتركت التحليل لأثر هذا الحراك الأدبي ، ومدى تأثيره في المبحث التالي.

٤ –من ذلك على سبيل التمثيل لا الحصر كتاب (عودة الحجاب) لمحمد المقدم، و (قولي في المرأة) لمصطفى صبري، و(المرأة في الشرق) لمرقص فهمي، و (المرأة :أزمة الهوية وتحديات المستقبل)

وحسبي في هذا البحث أن أتناول أبرز الأدباء الذين خاضوا هذه المعركة، واستخدموا الأدب النازع إلى العاطفة، النابع من المشاعر لخوض هذه المعركة ، وتأييد رأيٍ على رأي، وهنا سيَتَكشَّفُ أثَرُ الأدب، وهل كان أداةً ناجعةً في إحداث حراك اجتماعي حول هذه القضية؟ وهل حَضَرَ الأدب في هذه المعركة حضوراً توصيفياً، أو حضوراً يحشد الحجج، ويُسدِي البراهين لطرف دون آخر؟!

إنَّ المسح الأول لمواقف الأدباء من شعراء وناثرين إزاء هذه القضية يحيل إلى اتجاهات ثلاثة:

- أدباء أيدوا السفور بحماسةٍ كبيرةٍ، وإعجاب واضح، وصارعوا عدداً من التقاليد والعادات المجتمعية، وعدُّوا الحجاب منها، وجعلوه قيداً لحريتها، ورمزاً لتخلفها، وعلامة لجمودها الفكري، والثقافي، وأطلق بعض الدارسين على هذه الفئة (جماعة السُّفُورِيين)[1]...
- أدباء وقفوا ضد السفور بحماسة كبيرة أيضاً، ورأوا أنَّ الحجاب قضية شرعية، لا تقبل المساومة، فهو علامة الحشمة، ودليل العفة، وصمَّامٌ لحفظ المجتمعات من العلاقات المحرمة، واتجهوا إلى تفنيد حجج الفئة الأولى، والرد عليها...
- أدباء تردَّدوا في موقفهم بين التأييد، والمعارضة، ولم يَنزِعوا إلى رأيٍ واضحٍ تجاه هذه القضية، وترك بعضهم الفصل في هذه القضية للمجتمع والزمن، وتوارى

إحسان الأمين، و (دفاعاً عن المرأة) د.جابر عصفور، (التحرير الإسلامي للمرأة) د.محمد عمارة، و(المرأة بين الموروث والتحديث)د.زينب رضوان، و(العدوان على المرأة في المؤتمرات الدولية) د.فؤاد العبدالكريم... وفي عام ١٩١٥م أنشئت مجلة (السفور).

١–انظر :مجلة الغاوون، العدد ١٣، آذار ٢٠٠٩م، وذلك في زاوية "دفتر" التي عالج فيها الباحث محمد الخباز دعوة السفور لدى شاعر العراق معروف الرصافي.

رأيهم الحاسم في قضية السفور، فكان موقفهم حائراً، متردداً، لم ينتصر لفئةٍ على أُخرى.

ويقف على قائمة الاتجاه الأول ممن أيَّد السُّفُور بحماسةٍ كبيرةٍ الشاعر العراقي جميل صدقي الزهاوي ت١٣٥٤هـ الذي سجَّل موقفاً صريحاً، ومندفعاً تجاه الدعوة إلى سفور المرأة، وتمزيق حجابها، ورأى في حجاب المرأة رمزاً لتخلُّفِها، ورجعيتها، ووسمه بـ(الحارس الكذَّاب) ونَزَعَ إلى الخروج من ربقة التقليد، وقال في مقدمة ديوانه مُبرِزاً منهجه في شعره: "والشاعر الحرُّ شجاعٌ لا يهاب في الصدق لوم اللائمين...يريد كل يوم أن يمرق عن العادات، ويُمَزِّق أطمارها البالية..."[1] ومما قاله في دعوته لسفور المرأة[2]:

مَزقِي يا ابنَة العراق الحِجَابَا ... واسْفِري فالحياة تَبغِي انقلابا
مَزقيه واحرقيه بلا ريثٍ ... فقد كان حارساً كذَّابا
مَزقيه وبعد ذلك أيضاً ... مَزِّقيه حتى يكون هُبَابَا

ويمضي هذا الشاعر في حماسته لدعوته، فيقول في قصيدةٍ أُخرى[3]:

قال:هل بالسفور نفعٌ يُرجى ... قلت: خيرٌ من الحِجَاب السفور
إنَّما في الحِجَاب شَلٌّ لِشَعبٍ ... وخَفَاءٌ وفي السُّفور ظُهُور
كيف يَسْمو إلى الحَضَارة شَعْبٌ ... منه نصفٌ عن نصفه مَسْتُوْر

---

١ –مقدمة ديوان جميل صدقي الزهاوي: ٤.

٢ –هذه القصيدة نشرت في مجلة البلاغ الأسبوعي، يوم الجمعة ٢٦ أغسطس ١٩٢٧م بتوقيع "الشاعر الصغير" وهي لجميل الزهاوي.

٣ –ديوان جميل صدقي الزهاوي: ٧٢٠/١.

وفي قصيدته (أسْفِري) يَلْهَجُ بحماسةٍ شديدة لدعوته، ويرى الحجاب من أدواء الأمة التي أوْرَدَتْها وَحْل التخلف، ويدعو المرأة العراقية لنبذ عاداتها، ومواكبة عصرها.

يقول في زعمه السالف[1]:

أسْفِري فالحِجَابُ يا ابنة فِهر ... هو داءٌ في الاجتماع وَخِيمُ
كُلُّ شيءٍ إلى التَّجَدُّد ماضٍ ... فلماذا يَقِرُّ هذا القديم
أسْفِري فالسفور للناس صُبحٌ ... زاهِرٌ والحجاب ليلٌ بهيم
أسفري فالسُّفُور فيه صلاحٌ ... للفريقين ثم نَفْعٌ عميم

لم يقل في الحجاب في شكله هذا نبيٌ ولا ارتضاه حكيم

هو في الشرع والطبيعة والأذ ... واق والعقل والضمير ذَمِيْم
...زعموا أنَّ في السفور انثلاماً ... كَذَبوا فالسُفُور طهرٌ سليم
لا يقي عفة الفتاة حجابٌ ... بل يَقِيْهَا تَثْقِيْفُهَا والعلوم

وتُسَيطِر الفكرة على ذهن الزهاوي في قصيدته المعنونة بـ: (مافي السفور معرَّة) فتَغُوْر لغة الشِّعر والإحساس، وتدنو القصيدة إلى المناقشة الفكرية المرصوفة في قالب وزني، ومن ذلك قوله[2]:

مَافي السفور معرَّةٌ ... تُخشى على امرأة عَفِيْفَة
ليست مُشايعة الطبيعة ... في عفاف بالمُخيفة
إنَّ النظيفة في قرارة ... نفسها تَبْقَى نظيفة

ويوجه خطابه إلى المستدلين بشرعية الحجاب من القرآن الكريم، فيقول[3]:

---

١ –سوانح وآراء في الأدب والأدباء، د.بدوي طبانة: ٢٤٤.

٢ –السابق: ١/ ٧١٤.

٣ –السابق: ١/ ٦٠٢–٦٠٣.

عَـــزَوا الحجـــاب إلـــى الكتـــا ب فليـــتهم قَـــرأوا الكتابـــا
إنَّ التَّعَـــــــصْبَ مـــــــانعٌ أن تُبْـــــصِرَ العـــين الـــصَّوَابا

ويُشَايعُ الزهاوي شاعر عراقيٌ آخر هو معروف الرصافي ت ١٣٦٥هـ الذي شخَّص داء الأمة فوجده في قيد العادات والتقاليد، التي عاش أسيراً لها، ومذعناً لقداستها، وزعم أنَّ من تلك العادات عادة الحجاب، فهي عادةٌ لا تمت للدين بصلة، واستعجَبَ من التشدُّد في رمزيته الدينية . يقول الرصافي في زعمه السابق[1]:

وإنّـــي لأشـــكو عـــادةً فـــي بلادنـــا رَمَى الدهر منها هضبة المجد بالصدع
وذلـــك أنَّـــا لا تَـــزَالُ نـــساؤنا تعيش بجهلٍ وانفصال عن الجمع
وأكبـر مـا أشـكو مـن القـوم أنَّهـم يَعـدُّونَ تَشْديد الحِجَاب من الشَّرع

ويقول في موطن آخر[2]:

لقـد غَمَطـوا حـقَّ النـساء فـشدَّدوا عليهنَّ فـي حـبسٍ وطـول ثـواء
وقـد ألزمـوهنَّ الحجـاب وأنكـروا عليـــهنَّ إلا خِرْجَـــةً بغطـــاء
أضـاقوا علـيهنَّ الفـضاء كـأنهم يغـارون مـن نـورٍ بـه وهـواء

ويرى أنَّ حجاب المرأة هو تهذيبها، وتأديبها، وهو يجنح إلى الحجاب المعنوي، وينبذ الحجاب الحسي، فيقول:

شَـــرَفُ المليحـــة أن تكـــون أديبـــةً وحجابهـــا فـــي النـــاس أن تتهـــذَّبا
...هـــل يعلـــم الـــشرقي أنَّ حياتـــه تعلـــو إذا ربَّـــى البنـــات وهـــذَّبا

---

١ –ديوان الرصافي :٣٤٤.

٢ –ديوان الرصافي:٣٤٢.

والشاعر العراقي المعروف محمد مهدي الجواهري ت ١٩٩٧م يكتب قصيدة (رسالة مملحة)[١] ويوجهها إلى وزير الداخلية العراقي الذي سمع بمطاردته لابسات القصير، وضمَّنها رأيه في لباس المرأة، وعفتها، التي لا تكمن في لبس الأقمشة، وإنما هي كامنة في الضمائر كما يزعم، فيقول:

نُبئت أنك تُوسع الـ ... أزياء عَتّاً واعتسافاً
تَقْفُو خُطَى المتأنقا ... ت كسالكِ الأثر اقتيافاً
وتَقِيْسُ "بالأفتار" أرْ ... دِيةً بحجة أن تَنَافَى
ماذا تُنَافِي؟ بل وما ... ذا ثمَّ من خُلق يُنَافَى
حوشيتَ أنتَ أرقُّ حا ... شية ولطفاً وانعطافا
وأشد لصقاً بالحجى ... وألدُّ بالعَدْل اتِّصَافاً
أتَرَى العفاف مقاس أقـ ... مشة ؟ظَلَمْتَ إذن عَفَافَا
هو في الضمائر لا تُخَا ... طُ ولا تُقَصُّ ولا تُكَافى
من لم يخف عُقْبَى الضمي ... ر فمِن سواه لن يَخَافَا

ومن دعاة السفور أيضاً الشاعرة المعروفة بـ (باحثة البادية)[٢] ت ١٣٣٧هـ التي كتبت قصيدة عنونتها بـ (رأيٌ في الحجاب) وقالت في لغةٍ لا تخلو من المباشرة والتقرير[٣]:

ياليتَ شعري والمشارب أمرها ... متعاكسٌ من أيِّ وردٍ نستقي
فدعوا النساء وشأنهن فإنما ... يدري الخلاص من الشقاوة من شقي

---

١ –الجواهري في العيون من أشعاره، محمد مهدي الجواهري :٥٢٧

٢ –انظر :معجم البابطين لشعراء العربية في القرنين التاسع عشر والعشرين، النسخة الإليكترونية على الرابط الآتي: http://www.almoajam.org/poet_details.php?id=١٧٢٧

٣ –السابق.

وأمامكم غير القناع مآزقٌ أولى بها التفكير من ذا المأزق
ليس السفور مع العفاف بضائرٍ وبدونه فَرْطُ التَّحجب لا يَقي

وفي مقابل هذه الفئة السُفُورية فئةٌ أُخرى دعت المرأة إلى الحفاظ على حجابها، ونبذ تلك الدعوات الزائفة التي تبتغي استنساخ المرأة الغربية، والاحتذاء بها، ورأت في طيات هذه الدعوة خطراً محدقاً بالمسلمين، فسفور المرأة هو مدعاة إلى الفساد الأخلاقي، والانحلال السلوكي، وتعقيد الحياة المجتمعية... وفي هذا النسيج المُعَقَّد إشغال للمسلمين عن همومهم الكبرى، وأهدافهم السامية، وإفساد عباداتهم بملاحقة شهواتهم. ومن هؤلاء الأدباء: مصطفى صادق الرافعي ت ١٣٦٤هـ، وأحمد محرم ت ١٣٦٤هـ، ومحمود غنيم ت ١٩٧٢م، ومحمد عبدالمطلب ت ١٩٨٠م، وعلي الطنطاوي ت ١٩٩٩م وآخرون استنكروا الدعوة إلى السفور، وردُّوا على دُعاتها، واستقصوا في ذكر مخاطِرها، وذكَّروا بمآلات السفور في المجتمع الغربي، حتى إنَّ أحمد محرم جعل الدعوة إلى سفور المرأة –التي كان من دُعاتِها قاسم أمين– أخطر من جيش يهاجم الأمة، فقال[1]:

سلامٌ على الأخلاق في الشرق كلِّه إذا ما استُبيحت في الخُدُور الكرائم
أقاسمُ لا تَقْذِف بجيشك تَبْتَغي بقومك والإسلام ما الله عالم
ففي كل سَطْرٍ منه حَتْفٌ مُفَاجئ وفي كلِّ حَرفٍ منه جيشٌ مُهَاجِم

والرافعي من أكثر المناضلين، وأشد الرَّادعين لهذه الدعوة، وقد دفعها بشعره، ونثره، فقال معلقاً على مجلة السفور التي أُنشئت عام ١٩١٥م: "...فأنا ناقمٌ أشدَّ النِّقمة على مبدأ هذه الصحيفة أي (السُّفُور) فأيُّ سفور يُريدُونَ –أخزاهم الله – وقد حُجِبَت

١–ديوان محرم: ٢/٦٣–٦٥.

نساء النبي –صلى الله عليه وسلم– وهو أكمل من مَشَى على الأرض، ومن يمشي، وهنَّ أمهات المؤمنين ...ولكنَّ هؤلاء لا يفقهون دينهم، ولا أسرار دينهم، ولا ينظرون للمصلحة الصحيحة...ودعاة السُّفُور لا تلائمني أخلاقهم، ولو كان فيهم مائة كاتب ومائة شاعر"[1].

ويجأر بانتكاسة تلك الدعوة، وإذعانها للهوى، ومعارضتها للفطرة فيقول شعراً[2]:

أبى الجهل إلا أن يكون نسَاؤنا رجالٌ سِوَانَا والرجال نساءُ

ويقول في قصيدة أخرى[3]:

دَلَالُكِ في التَّبرجِ من ظَلالِك وماعَابَ الدَّلال سوى دلالِك
كَمُلتِ تَبَرجاً فكمُلتِ حُسناً ولكن جاء نقصُكِ من كَمَالِك
لمن تَتَبَرَّجِينَ وذي سبيلٌ وماهي أفقُ شمسِكِ أو هلالك
أما تَخْشيْنَ أنَّكِ في طريقٍ يُزَفُّ بها الحرام على حَلالِك
وأنَّ ذئابَ هذا الحسنِ تَمشي مُسَعَّرةَ اللحاظِ على غَزَالك

إلى أن قال:

ولم يَحجُبكِ دينُ الله إلا ليَحجِبَ كلَّ سوءٍ عن جَلَالِك
فإنَّ النَّاس ناسٌ حيث كانوا وأعيُنُهم وألسنُهم مَهالك

ومن أصحاب هذا الاتجاه الشاعر المصري محمد عبدالمطلب، الذي استنكر على النساء التبرج، وتقصير الثياب، وتغير السلوك، فقال[4]:

مافي بنات النيل من أرَب لذي غَرضٍ نبيل

---

١ –رسائل الرافعي :٥٧–٥٨.

٢ –ديوان الرافعي، شرح محمد كامل الرافعي:٤٦.

٣ – عودة الحجاب :١٩١/١، ولم أجد القصيدة في ديوان الشاعر، ووجدت إشارة إليها في رسائل الرافعي : ٥٧.

٤– ديوان محمد عبدالمطلب :١٨٤.

أصـــبَحنَ عَابَـــاً فـــي الزَّمَـــا ... ن وسَـــوْأةً فـــي شَـــرِّ جيـــل
...مـــا لابنـــة الخِـــدر المـــصو ... ن ورَبَّـــة المجـــد الأثيـــل
أودَى شـــــفيفُ نقابِهـــــا ... بكرامـــــة الأم البَتُـــــول
وانجَـــابَ جَيـــبُ قميـــصها ... عـــن وَصْـــمَة الـــشيخ البجيـــل
وعَـــلا رنـــين حُجُولِهَـــا ... أسَـــفاً علـــى الـــذيل الطويـــل
فـــإذا مَـــشَت هتَـــكَ النِّقـــا ... ب محاسِـــن الوجـــه الجميـــل

ثم يختم قصيدته بقوله:

عَمِيَـــت بـــصائر أهـــل وا ... دي النيـــل عـــن وَضَـــح الـــسبيل
ذَهَلُـــوا عـــن الأعْـــرَاض لـــو ... يـــدرون عاقبـــة الـــذُّهُول!

وممن استنكر دعوة السفور الشيخ علي الطنطاوي –يرحمه الله– الذي ردَّد اعتراضه على هذه الدعوة في مواضع متفرقة من مؤلفاته، فخصَّ البنات برسالة صغيرة الحجم، عظيمة النفع، عَنوَنَهَا بـ (يابنتي) وضمَّنَهَا شُجُوناً حول بنات المسلمين، ومما قاله فيها حول موضوع السفور والاختلاط : "وإنَّ دعاة المساواة والاختلاط باسم المدنيَّة قوم كذَّابون من جهتين: كذَّابون لأنهم ما أرادوا بذلك كله إلا متاع جوارحهم، وإرضاء ميولهم، وإعطاء نفوسهم حظَّها من لذة النظر، وما يأملون من لذائذ أُخَر، ولكنَّهم لم يجدوا الجرأة على التصريح به فلبسوه بهذا الذي يَهْرِفُونَ به، بهذه الألفاظ الطنَّانة التي ليس وراءها شيء : التقدُّمية، والتَّمدن، والحياة الجامعية...وهذا الكلام الفارغ–على دويه–من المعنى، فكأنه الطَّبل!

وكذَّابون لأن أوربا التي يأتمُّون بها، ويهتدون بهديها ،ولايعرفون الحق إلا بدمغتها عليه، فليس الحق عندهم الذي يُقَابِل الباطل، ولكنَّ الحق ماجاء من هناك : من باريس، ولندن، وبرلين، ونيويورك، ولوكان الرقص، والخلاعة، والاختلاط في الجامعة ، والتَّكشف في الملعب، والعري على الساحل، والباطل ماجاء من هنا: من الأزهر، والأموي، وهاتيك

المـدارس الـشرقية، والمـساجد الإسـلامية، ولـو كـان الـشرف والهـدى، والعفـاف، والطهارة...[1].

وقد كرر الطنطاوي دفاعه عن الحجاب، وردوده على الداعين إلى السفور في ذكرياته، التي تناول فيها تحولات المجتمع السوري، وما طَالَه من دعواتٍ إلى سفور المرأة، وما تركه الاستعمار من نماذج خادعة، وبهارج تستميل ذوي القلوب المريضة، يقول في ذكرياته رادعاً لمن سمَّاهم (لصوص الأعراض) من دعاة السفور لغرض الرياضة، والرشاقة، والحفاظ على صحة النساء: "...إنَّكم لا تريدون الصحة، ولا الرياضة، ولا المشاركة بالعيد. إنَّما تريدون التَّلذُّذ بمرأى أجساد بناتنا باسم العيد والرياضة والصحة. إنَّكم لصوص الأعراض. ولكن ليس الحق عليكم. الحق علينا نحن آباء الطالبات والطلاب. فنحن عميان لا نُبصِر، خُرْسٌ لا ننطق، حمير لا نَغَار، وإذا استمرت هذه الحال فليس أمامنا إلا اللعنة التي نزلت على بني إسرائيل، على لسان داود وعيسى بن مريم.

اللهم لقد بلغت. اللهم لقد أنكرت المنكر. اللهم لا تنزل علينا لعنتك، ولا تحلل بنا غضبك"[2].

ويقول الطنطاوي في عبارة مكتنزة تُلَخص رؤيته للمرأة الشرقية والمرأة الغربية : "اسْتَتَرت المرأة الشرقية فَعَزَّت، وتمنَّعت فطُلِبَت، وعُرِضَت الغربية فهانت، لأنَّ كل مَعْرُوْضٍ مُهَان"[3].

---

١ –يابنتي، علي الطنطاوي: ٢٤–٢٥.

٢ –ذكريات، علي الطنطاوي: ٥/ ٢٥٣–٢٥٤.

٣ –مع الناس، علي الطنطاوي: ١٢٦.

وفي السودان يرفض الشاعر حسيب علي الحسيب ت ١٣٨٦هـ هذه الدعوة، وينبذها بعنف، فيقول في قصيدة راداً على دعاة السفور بلغةٍ لا تخلو من المباشرة والتقرير[١]:

دَعُوا في خِدرِها ذات الدلال ... فقد أرهقتُمُوهَا بالجِدَال
رأيتُ شُعُورَهَا الحَسَّاس مُضْنَى ... على هذا الجمود عن المعالي
تذوب وقد تَنَاظَرْتُم حياء ... بفحش اللفظ أو هجر المقال
...ومسألة السفور غَدَت قديماً ... لدى الكتَّاب مشكلة النِّضَال

ومن القصائد الجميلة التي نافحت عن الحجاب، وعَرَّت العري، وتأسَّفَت على واقعٍ المجتمع، وملابس النساء ما سطره الشاعر المصري محمود غنيم ت ١٩٧٢م في قصيدته (تكشُّف الغيد) التي يقول في مطلعها[٢]:

تَكَشَّفَ الغِيْدُ أعضَاداً وسِيقَانَا ... لم يبقَ مستترٌ في الغيد مابَانَا
ماللفسَاتين فوق الركبةِ انحَسَرَت ... فما تَرَى تحْتَها عينان فستانا
يا ليت شِعْرِيَ: ما تُبْدي الفتاة غَدًا ... بعد الذي قد بَدَا من جسْمها الآنا؟
كأنَّني بثياب الغِيدِ بعد غدٍ ... إنْ حَدَّثَ الناسُ عنها، قَدَّموا كانا

ثم يقول في حرقة، ونصح لبنات المسلمين:

قل للمليحة: لاتكْشِفْ مَفَاتِنَهَا ... فالذوقُ يُنْكِر هذا الكشفَ نُكْرَانا
باللهِ، يا فَتَيَاتِ العَصْرِ، قُلْنَ لنا: ... أزَانَ أبدانَكُنَّ العُرْيَ أم شانا؟
صُنَّ الجمال بأثواب تُضاعفهُ ... كم من جمالٍ بِضَافي ثوبه ازدانا
لسنا نَعُود إلى الماضي بغادتنا ... ولا نريد لها سِجْنًا وسجَّانًا

---

١ –عودة الحجاب: ٦١/١.

٢ –الأعمال الكاملة، محمود غنيم: ٨٩٢/١–٨٩٣.

لكـــنَّ للـــذوق حَـــدًّا لا نجـــاوزُهُ ... وللـــشريعة والأخـــلاق مِيزانـــا

...لا يُعْـشَقُ الحـسنُ إلا وهْـو مُمْتَنـعٌ ... مـا أرخـصَ الحـسنَ مقـدارًا إذا دَانـا!

بالبـدرِ همْنَـا زمانـاً وهـو أُحْجِيَـةٌ ... حتـى إذا مـا كـشفنا سـرَّه هانـا

والمـاءُ –وهْـو قـوام الـروح– أرْخَـصَه ... أنـا نـرى كـلَّ نَهْـرٍ منـه مـلآنا

وتبقى فئةٌ من الشعراء في موقف مُترددٍ، تارةً مع السفور ومؤيديه، وأُخرى ضده، وتركوا الحكم على صحة الرأيين إلى مستقبل الأيام، فتقف بعد فحص نتاجهم الأدبي على موقف مترددٍ، أو متخوفٍ من الانحياز إلى فئة دون أُخرى، وربما كان الظرف التأريخي أو السياسي، أو الاجتماعي حاكماً على انجذاب الأديب لرأي دون رأي، ومن هؤلاء الأدباء: أحمد شوقي ت١٩٣٢م، وحافظ إبراهيم ت١٩٣٢هـ، وهما شاعران كبيران في تأريخ الأدب العربي الحديث، وبدا موقفهما متردداً من هذه القضية، فشوقي يحثُّ على التمسك بالحجاب، والحفاظ على هوية المرأة المسلمة من خلال قصيدته التي قالها في جمعٍ من السيدات المصريات[1]:

قُـــم حـــيِّ هـــذي النَّيـــرات ... حَـــيِّ الحـــسانَ الخيِّـــرات

واخْفِـــض جبينَـــكَ هيبـــةً ... للخُـــرَّد المُتَخَفِّـــرات

زيْـــن المقاصِـــر والحِجَـــا ... لِ وزيـــن محـــرابِ الـــصلاة

هـــذا مقـــامُ الأمهـــا ... تِ فهـــل قَـــدرْت الأمهـــات

...خُـــذْ بالكتـــاب وبالحديـــ ... ـــث وســـيرةِ الـــسَّلف الثِّقـــات

وارجـــع إلـــى ســـنن الخَلِيْـــ ... ـــقَة واتبـــع نُظـــمَ الحيـــاة

١–الشوقيات: ١٠٢/١.

وفي قصيدته (بين الحجاب والسفور) تَلْمَسُ تغيراً طفيفاً في موقف شوقي تجاه الحجاب، وهو موقف مراوغ، متردد، يشعرك بعدم وقوفه الراسخ على موقفٍ محدد من هذه القضية المجتمعية، فرَمَزَ للمرأة بالطائر الحبيس، وتعاطف معها، ودعاها للتحرر المتعقل، فكان موقفه وسطاً بين الداعين للسفور، وبين محاربيه، يقول في مطلع قصيدته[1]:

صـــــدَّاحُ ياملـــــك الكنـــــا ... رِ ويـــــا أميـــــر البُلبُـــــلِ
قـــــد فـــــزتُ منـــــك (بمعبـــــد) ... ورُزِقـــــتُ قـــــربَ (الموصـــــلي)

وفيها يأنف من العبودية والرق حين قال:

شـــــهْدُ الحيـــــاةِ مـــــشوبةً ... بـــــالرِّق مثـــــلُ الحنظَـــــلِ
والقيـــــدُ لـــــو كـــــان الجُمـــــا ... نَ منظمـــــاً لـــــم يُحْمَـــــل
يـــــاطيرُ لـــــولا أن يقـــــو ... لـــــوا: جُـــــنَّ قلـــــتُ: تَعَقَّـــــل
اسْـــــمَع فـــــرُبَّ مُفـــــصِّل ... لـــــك لـــــم يُفـــــدك كمجمِـــــل
صـــــبراً لمـــــا تـــــشقى بـــــه ... أومـــــا بـــــدا لـــــك فافعَـــــل
...يـــــاطيرُ والأمثـــــال ... تُـــــضْرَبُ للَّبيـــــبِ الأمثَـــــل
دنيـــــاكَ مـــــن عاداتهـــــا ... ألا تكـــــون لأعْـــــزَل

ويأتي الموقف المؤيد لقاسم أمين في قصيدته التي قالها في حفلة نسائية انعقدت في دار التمثيل العربي برئاسة هدى شعراوي، وجاءت في حقبةٍ تالية لثورة ١٩١٩م، حيث تحرَّر شوقي من شاعرية القصر التي قيدت بعض أفكاره، وحجبت بعض مواقفه،

١ – السابق: ١/١٧٦–١٨٠.

ومنهم مَن ردَّ هذا التحوُّل إلى عيشه في المنفى، ومراجعاته لعدد من أفكاره وقناعاته، وقراءاته العميقة في مراجع عربية وأجنبية، ويتجلى موقفه في قصيدته التي يقول فيها[1]:

قـــل: للرِّجـــال طَغَـــى الأســـيرْ ... طيـــرُ الحِجـــالِ متـــى يَطيـــر؟
أوْهَـــى جَنَاحَيـــهِ الحديـــ ... ـــد وحَـــزَّ ســـاقَيهِ الحريـــر
ذهـــبَ الحِجَـــابُ بـــصبرِهِ ... وأطَـــالَ حيْرَتـــه الـــسُّفور

وخاطب قاسم أمين بقوله:

يـــا قاســـمُ انظُـــر كيـــف ســـا ... رَ الفكـــرُ وانتقَـــلَ الـــشعور
جابَـــت قـــضيَّتُكَ الـــبلا ... دَ كأنهـــا مَثَـــلٌ يـــسير
مـــا النَّـــاسُ إلا أوَّلٌ ... يمـــضي فيخلُفـــه الأخيـــر

أمَّا حافظ إبراهيم فقد اقترب من شوقي في موقفه الحائر تجاه قضية السفور، وتنبه لهذا التردد الناقد أحمد أمين ت ١٣٧٣هـ. فقال في مقدمة ديوان حافظ: "قد يؤخذ عليه أنَّه لم يكن يتعمق في دراسة المسائل الاجتماعية، ولم يكن يُكَوِّنُ فيها رأياً بعد بحثها وتمحيصها، ودرس حججها..."[2]. ويمثل لهذا التردد بموقفه من الحجاب حين رثى قاسم أمين بقوله[3]:

إنْ رأيـــتَ رأيـــاً فـــي الحِجَـــاب ولـــم ... تُعـــصَم فتلـــك مَرَاتـــبُ الرُّسُـــل
الحُكْـــمُ للأيـــام مَرْجِعُـــهُ ... فيمـــا رأيـــتَ فـــنَمْ ولا تَـــسَلِ
فـــإذا أصـــبْتَ فأنـــتَ خيـــرُ فَتـــى ... وَضَـــعَ الـــدواءَ مواضـــعَ العِلَـــل
أوْلا فحَـــسْبُكَ ماشَـــرُفتَ بـــه ... وتركـــتَ فـــي دنيـــاكَ مـــن عَمَـــل

---

١ –السابق:٢/١٦٦.

٢ –مقدمة ديوان حافظ إبراهيم، ضبط أحمد أمين، وأحمد الزين، وإبراهيم الأبياري.

٣ –السابق.

يقول أحمد أمين بعد ذلك :" فتراه مُضْطَرِباً لا يستطيع الجزم برأي، أو هو لا يريد "[1].

وفي قصيدة أُخرى يحذر النساء من السفور، والتشبه بالرجال، ويوجه نداءه لمجتمعه بعدم التضييق عليهن، والإسراف في سترهن في موقف متزنٍ تجاه القضية.

فيقول[2]:

أنا لا أقول دعوا النساء سوافراً ... بين الرجال يَجُلنَ في الأسواق

يَدرُجنَ حيث أردنَ لا مِن وازعٍ ... يَحذَرنَ رِقْبَتَه ولا من واقي

يَفْعَلنَ أفعال الرجالِ لواهياً ... عن واجباتِ نواعِس الأحداقِ

ثم يقول:

كلا ولا أدعوكُمُ أن تُسْرِفُوا ... في الحَجْبِ والتضييق والإرهاقِ

ليْسَت نساؤُكُمُ حُلىً وجواهِراً ... خوفَ الضياع تُصَانُ في الأحْقاق

ليست نساؤكم أثاثاً يُقْتَنَى ... في الدُّور بينَ مَخَادِعٍ وطباق

فتَوسطوا في الحالتينِ وأنصِفوا ... فالشرُّ في التقييد والإطلاق

وتَشُمُّ رائحة التردد في قصيدته المعنونة بـ (تحية لجمعية المرأة الجديدة) فهو يرد على القائلين بتعطيل المرأة المصرية، ويمتدح صمود النساء في المظاهرة المشهورة عام ١٩١٩م ضد الاستبداد الإنجليزي ،التي طافت القاهرة هاتفةً بالحرية بقيادة صفية زغلول ، ومن ذلك قوله[3]:

يقولونَ: نصفُ النَّاس في الشرق عاطِلٌ ... نساءٌ قضينَ العمرَ في الحُجُراتِ

وهذي بنات النيل يَعْمَلنَ للنُّهى ... ويَغْرِسنَ غرساً داني الثَّمَرَاتِ

وفي السنة السوداء كَنَتَنّ قَدْوَةً ... لنا حين سالَ الموتَ بالمَهَجات

---

١ – السابق.

٢ – السابق:١/٢٧٠.

٣ – السابق١/١٢٢.

وقفـتُنَّ فـي وجـه الخمـيس مُـدَجَّجاً وكُنـتُنَّ بالإيمـانِ مُعْتَـصِمَاتِ

وقد تهكَّم حافظ بتعرض الجيش البريطاني لمظاهرة النساء المذكورة سلفاً في قصيدة أخرى، ووصف سفور المرأة، وبروز شعرها، فقال[1]:

خَـرَجَ الغـواني يَحْتَجِبـنَ ورُحـتُ أرقـبُ جَمْعَهنَّـه
فـإذا بهـنَّ تَخِـذْنَ مـن سُـودِ الثيـابِ شـعارهنَّه
فطَلَعـنَ مثـلَ كواكـبٍ يَـسْطَعنَ فـي وَسَـطِ الدُّجُنَّـه
وأخـذْنَ يَجْتَـزنَ الطريـ ـقَ ودارُ سـعدٍ قـصدُهنَّه
يمـشينَ فـي كَنَـفِ الوقـا رِ وقـدْ أبَـنَّ شُـعورَهنَّه
وإذا بجـيشٍ مُقْبـلٍ والخيـلُ مُطلِقَـةُ الأعنَّـة
وإذا الجنـودُ سُـيُوْفُهَا قـد صـوِّبَت لنُحُوْرِهِنَّـه

إنّني حين أعرض تلك الاتجاهات، وأدلِّل عليها لأبتغي إثبات الحراك الأدبي الثائر من هذه القضية المجتمعية الساخنة في حينها، وقد تعمدتُ أن أعرض القضية عرضاً توصيفياً مجرداً ؛ رغبةً في التأكيد على كمِّ المشاركين من الأدباء في معركة الحجاب، ومدى الحراك الفكري والاجتماعي الذي أخذ حيزاً كبيراً من النقاش، والحوار ، والتأليف في بلدان عربية عديدة، ومن جانب آخر أردت أن أثبت بمسح سريع تباين مواقف الأدباء، وتعدد مشاربهم تجاه قضية السفور ... ويبقى السؤال الأهم حول قدرة الأدب في خوض غمار المعارك الفكرية، واستخدامه أداة للإقناع، والحشد، والتأييد، ومدى أثره في خلخلة القيم، وتبديل الموازين، أو استقرارها، والتأكيد عليها، وهذا ما سأحاول دراسته في المبحث الآتي.

١-السابق:٢/٨٧.

قياس التأثير (حجاجية أدب السفور) :

سأعود مرةً أخرى إلى الجدل في وظائف الأدب، وهل له قيم نفعية؟ أم هي غايات التسلية والإمتاع؟ وهل الأديب يمثل صورةً حيةً لمجتمعه، وحياته التي يتقلب فيها، ويعيش حُلْوَها، ومرَّها؟ أم أن أدَبَه يمثل ذاته وخصوصيته التي ربما انقطعت عن حياته ومجتمعه؟ وهل يضطلع الأدب بمهام توجيهية ؟ أم هو في معزلٍ عن التوجيه والرقي الخلقي والفكري؟

تساؤلاتٌ كثيرةٌ دارت في فلك كتابات نقدية عديدة، ونوقشت نقاشاً طويلاً في مصنفات قديمة، وحديثة، ووفاق رؤى متباينة ، وخلفيات متباعدة، ولا ريب أنَّ معالجة مثل هذا الموضوع ستدخل ضمن دوائر عديدة ، منها :دائرة الدين، والمجتمع، والعادات، والتطبيقات الأدبية، وغير ذلك .

فالاتجاه الاجتماعي يرى أصحابه "أنَّ الأديب إنما هو كائنٌ اجتماعي منغرسٌ في طبقته الاجتماعية يحمل طابعها، وينطق على لسانها. لذلك اعتبروه صورةً (لأيديولوجية) مؤلفه، ولقيم الطبقة الاجتماعية التي ينتمي إليها"[1].

ونقادٌ آخرون رأوا في ضمور الوضوح المعنوي، وغياب الفكرة الناصعة أداةً من أدوات النضج الأدبي، وفرصةً لتأويل النص من مُتَلقيه ، وشبَّهوا النص بقطعة البصل؛ حيث لا لبَّ فيه، ولا نواة ، ولا قلب... ولكنَّ الأغشية تفضي إلى مثلها، وكلها مهمٌ وضروري[2]. يقول الدكتور عبدالرحمن القعود : "...لكنَّ الأمر في شعر الحداثة العربية المعاصرة مختلفٌ؛ إذ

---

١ –في تأريخ الأدب : مفاهيم ومناهج، حسين الواد :١٢.

٢ –هذا التشبيه للفيلسوف الفرنسي رولان بارت ت ١٩٨٠م .انظر: ثقافة الأسئلة ، د.عبدالله الغذامي :٢٠٦.

نواجَه في الغالب بغياب الموضوع عن النص الشعري، فلا يعرف المتلقي عمَّ يتحدث الشاعر، ولا فكرته التي يُعالجها"[1].

والحديث يطول حول هذه القضية، غير أنَّ المُسْلِم يؤمن برسالته في الحياة، وأنه مسؤول عن أقواله، وأفعاله، وأن الأدب داخل ضمن دوائر المسؤولية التي جاء ذكرها في القرآن، وفي أحاديث كثيرة وردت عن النبي –صلى الله عليه وسلم– فالاستثناء الوارد في قوله تعالى: (والشعراء يتبعهم الغاوون. ألم تر أنهم في كل واد يهيمون. وأنهم يقولون ما لا يفعلون. إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وذكروا الله كثيراً وانتصروا من بعد ما ظلموا وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون)[2] وَرَدَ في نماذج من الشعراء الذين نافحوا عن الإسلام، ودافعوا عنه بشعرهم، ووجدوا من الرسول –صلى الله عليه وسلم– حثّاً وتأييداً، ودعماً – كحسان بن ثابت ، وعبدالله بن رواحة، وكعب بن مالك – رضوان الله عنهم جميعاً– "ثم هو لكل من كان بالصفة التي وصفه الله بها"[3].

ومواقف الرسول – صلى الله عليه وسلم – مع حسان بن ثابت ، وعبدالله بن رواحة ، وكعب بن مالك، وكعب بن زهير – رضوان الله عنهم– معروفةٌ مشهورة، وهنا يتجلَّى لنا أهمية الأدب من هذا المنحى، وأنه أداة من أدوات الإصلاح، ودرعٌ من دروع المدافعة، ومن بوابته تتحرك المشاعر، وتتفاعل العواطف، ويحْسُنُ التَّوجيه، ويَعْظُم التأثير إنْ سلباً، أو إيجاباً، بل جعل بعض العلماء الأدب أداة لتوجيه الأمراء، والقضاة، وإرشادهم في أعمالهم، وسمَّوا هذا اللون بالأدب التوجيهي ، وهو" الأدب الخاص بتوجيه من كان يدور في فلك الخلفاء، والأمراء من كتَّابٍ، وقضاةٍ، وندماء؛ لتزويدهم بإرشادات تهمهم في

---

١ –الإبهام في شعر الحداثة (العوامل والمظاهر وآليات التأويل) : ٢٧٩.

٢ – سورة الشعراء: ٢٢٤–٢٢٧.

٣ –تفسير الطبري ، تحقيق :محمود شاكر : ٤١٩/١٩.

أعمالهم. مثال ذلك كتاب أدب الكاتب لابن قتيبة ت ٢٧٦هـ وكتاب أدب الكتّاب للصولي ت ٣٣٥هـ وكتاب أدب القاضي لابن حزم بن عبدالعزيز الحنفي ت٢٩٢هـ...[١].

وسأعود إلى قضية السفور، وهي قضيةٌ مجتمعيةٌ ثَارَ حولها جدلٌ واسعٌ، ونقاشاتٌ فكرية، وعلميةٌ عديدة، ترجمتها الكتابات، والمؤلفات التي أُلِّفَت منذ القرن التاسع عشر الميلادي، وحتى يومنا هذا، وفي هذه القضية أدلَى الأدباء بدلوهم، وشاركوا في حراكٍ حول قضية من قضايا مجتمعهم، والسؤال الذي أحاول أن أتلمسه –هنا– هو: هل كان استخدام الأدب من قبيل الاحتجاج والبرهنة على رأي دون رأي؟ أم كانت غاية الأديب أن يؤثر في مشاعر المتلقي، ويحرّك عواطفه إلى رأي دون آخر؟ أم أنَّ أدب السفور اتجه إلى توصيف حالة من حالات الجدل الفكري حول قضية مجتمعية، ومَالَ الأديب –من حيث شَعَرَ أو لم يَشْعر– إلى موقف ما بتزيينٍ، أو استبشاع؟ افتراضاتٌ كثيرة حول قضية تمسُّ الدين، والمجتمع، والفكر، وهي فرصة للبحث عن قدرة الأدب في التوجيه، والتأثير، والبرهنة ...

إنني حين أحاول استجلاء منهجٍ نقدي مناسب لبحث هذه القضية، ربما أجد أنَّ المقاربة التداولية هي الأنجع لبحث هذه القضية، فالمنهج التداولي يَسْعَى إلى دراسة المنجز اللغوي في إطار التواصل، وليس بمعزل عنه، ومعرفة مدى تأثير السياقات الاجتماعية على نظام الخطاب[٢]. يقول فان دايك: "والفكرة الأساسية في التداولية هي أننا عندما نكون في حال التكلم في بعض السياقات، فنحن نقوم أيضاً بإنجاز بعض

---

١ –من مقدمة كتاب الأجوبة المسكتة، لابن أبي عون :٤١.

٢ –انظر:التداولية والبلاغة العربية، باديس الهويمل، بحث منشور في مجلة المخبر (أبحاث في اللغة والأدب الجزائري) جامعة محمد خيضر بسكرة. رابط البحث على الشبكة العنكبوتية:
http://univ-biskra.dz/lab/lla/images/pdf/revue7/lehwimel.pdf

الأفعال المجتمعية، وأغراضنا ومقاصدنا من هذه الأفعال، كما هو الحال في إخراج مقاصد أفعال المشاركين، والتكلم إنما تتأسس من ناحية أخرى على مجموعة المعلومات، من ضروب المعرفة والاعتقادات، وأخص خواص السياقات التواصلية هو أن هذه المجموعات تختلف بالنسبة للمتكلم والمخاطب، وإن كانت تتفق في بعض النواحي، وتتغير صورة معرفة المخاطب أثناء التواصل تبعا لأغراض المتكلم تغييراً ملحوظاً..."[1].

كما أنَّ البعد الحجاجي القائم على تقديم الحجج والأدلة المؤدية إلى نتيجة معينة، لتأكيد رأي، أو نقض آخر هو منهجٌ ناجعٌ في دراسة أدب السفور القائم على خلاف بين الأدباء في تأييده، أو معارضته، وإذا حلَّ الخلاف فإنَّ المنهج الحجاجي يحضر معه[2].

ويرى الدكتور علي الشبعان[3] أنَّ الحِجاج يدخل في اعتباره عدة عوامل تحدُّه وتُعرِّفه:

١. التأثير في جمهور ما.

٢. قوة القول وفعله في مقام تخاطبي محدَّد.

وهذه العوامل الحجاجية تتناسب وأدب السفور؛ إذ إنَّ الداعين له، والمحذرين منه، يرغبون، أو يخشون من التأثير في الجمهور، وهو أدب قيل في مقام اجتماعي محدَّد، وحَمَلَ فِكْراً ورؤى تغريبية، والتحليل الحجاجي "يفترض دراسة نجاعة الكلام في مختلف أبعاده: المؤسساتية، والاجتماعية، والثقافية"[4].

---

١ – النص والسياق (استقصاء البحث في الخطاب الدلالي والتداولي) ترجمة: عبدالقادر قنيني: ٢٩٣–٢٩٤.

٢ – الحجاج مفهومه ومجالاته، إعداد حافظ إسماعيلي: ٥٧/١.

٣ – انظر: الحجاج بين المنوال والمثال "نظرات في أدب الجاحظ وتفسيرات الطبري": ١٤.

٤ – السابق.

وتجد في أدب السفور مقاولات واضحة، وبؤراً ناصعة للحجاج، فلفظة (الزعم) تواترت في هذا اللون الأدبي، والزعم يحتاج إلى دليل، و يستفزُّ المتلقي للرد . يقول الزهاوي[1]:

زَعَمُوا أنَّ في السُّفُور سقوطاً في المهاوي وأنَّ فيه خرابا

ثم يقول:

كَذَبوا فالسُّفور عنوان طُهْرٍ ليس يَلقى معرَّة وارتياباً

وفي مقامٍ آخر يقول[2]:

زَعَموا أنَّ في السُّفُور انثِلاماً كَذَبُوا فالسُّفُور طُهْرٌ قديم

والشاعر حسيب الحسيب يقول[3] :

زَعَمتُم تَعْشَقُونَ لها صلاحاً فظني أنَّ ذا عِشقُ الجمال

إنَّ المقاولة والزعم هي عتبةٌ دالة على أن نَفَساً حجاجياً ما سَادَ في هذا اللون الأدبي، وتبدو أطراف الحجاج يانعة بين قطبين أحدهما يؤيد السفور، والآخر ينفِر منه، ويحذِّر من عواقبه، وهي منطلقات تُغري بالاستكشاف والبحث، وقياس تأثير الأدب في المتلقين.

ولا ريب أنَّ مثل هذه الدراسة المختصرة لا تعطي نفَساً طويلاً لتحليل أدب السفور بالنهج الحجاجي كما يبتغيه الدَّارِس، غير أني سأمحور الحديث حول المنطلقات الحجاجية، وأنواع الحجج المستخدمة، رغبةً في قياس مدى قدرة الأدب في إقناع المتلقي في قضية اجتماعية جدلية. فالحجاج –في نظر برلمان وتيتكاه– هو "دَرْس

---

١ – هذه القصيدة نشرت في مجلة البلاغ الأسبوعي، يوم الجمعة ٢٦ أغسطس ١٩٢٧م بتوقيع "الشاعر الصغير" وهي لجميل الزهاوي.

٢ – سوانح وآراء في الأدب والأدباء، د.بدوي طبانة: ٢٤٤.

٣ –عودة الحجاب: ٦١/١.

تقنيات الخطاب التي من شأنها أن تؤدي بالأذهان إلى التسليم بما يُعرض عليها من أطروحات، أو أن تزيد في درجة التسليم"[1] وهذا ما أحاول تحسسه في أدب السفور الجدلي.

وعندما أتتبعُ المنطلقات الحجاجية فإني سأقف مع تقسيم بيرلمان وتيتكاه الذي يجعل منطلقات الحجاج في: (الوقائع، والحقائق، والافتراضات، والقيم، وهرميات القيم، والمعاني والمواضع)[2] وإذا ما بحثت عن هذه المنطلقات في أدب السفور فإن ألمع المنطلقات الحجاجية نبعت من منطلق القيم، التي "عليها مَدَار الحِجاج بكل ضروبه"[3] وهي "التي يُعوَّل عليها في جعل السامع يُذعِن لما يُطرح عليه من آراء"[4].وهي المنطلق الأوسع الذي اعتمد عليه الأدباء في معركة السفور، إذ المرأة في حجابها وسترها ارتبطت بقيم متعددة، فالغيرة ، والحياء، والسِتر، والفضيلة، والعفاف... قيمٌ مجردة ردَّدَها المنكرون لسفور المرأة، ورأوا في استجلابها حجةً تَسْتَفِزُّ المسلم، ويَسْتَهْجِنُهَا العربي الأصيل، وتؤوب به إلى دائرة الستر، والحجاب، وهناك قيمٌ مُضادة روَّجها دعاة السفور من مثل قيمة : الكرامة، والحرية، والتَّقَدُّم ...

فقيمة العفاف من القيم التي تداولها الطرفان في حجاجهما، فهذه الشاعرة الملقبة بـ باحثة البادية تزعم أن العفَاف لا يَرتبط بالحجاب ، فالسُّفور مع قرار العفة في

---

١ –في نظرية الحجاج:دراسات وتطبيقات، عبدالله صولة:١٣.

٢ –السابق:٢٤–٢٦.

٣ –السابق:٢٦.

٤ –السابق.

النفس يَقي المرأة من مزالق الرذيلة. كما أن الإفراط في الحجاب مع ضعف العفَّة لا يقيها من الوقوع في وحول الشر. فمدار الأمر على القيمة المُضمرة. تقول[1]:

ليس السفور مع العَفَاف بضائرٍ وبدونه فرط التَّحجُّب لايَقِي

ومعروف الرصافي يجعل مدار المحاجة في سفور المرأة على القيم، وهو يرى في القِيَم حجاباً معنوياً يقيها من كل الآفات، والشرور، فالتأديب، والتهذيب الذي يُزرع في نفوس الفتيات يُنبت حياءً وخجلاً لا نحتاج معه إلى فرضية الذئب والنعجة، تلك الفرضية التي دلَّل بها –مع ماطوته من دلالات سلبية – على تأكيد موقفه من الحجاب. يقول معروف[2]:

قل للأُلى ضربوا الحجاب على النسا أفتَعْلَمونَ بما جَرَى تحت العَبَا؟!
شَرَفُ الَمليْحَة أن تكون أديبةً وحجابها في الناس أن تَتَهَذَّبَا
والوجه إن كان الحياء نقابه أغْنَى فتاة الحيّ أن تتنَقّبا
واللؤم أجمع أن تكون نساؤنا مثل النعاج وأن نكون الأذْؤبا
هل يَعْلَمُ الشرقيّ أنَّ حياته تعلو إذا ربّى البنات وهذَّبا

والشاعر المصري محمد عبدالمطلب ينكر لباس المرأة المصرية، ويَنعى تقصيرها، وإثارتها، ويرى أنَّ القيم حين تبدلت عند بعض المصريات، وقلَّ الحياء اشتعلت الفتن،

---

١ –انظر :معجم البابطين لشعراء العربية في القرنين التاسع عشر والعشرين، النسخة الإليكترونية على الرابط الآتي: http://www.almoajam.org/poet_details.php?id=١٧٢٧

٢ –ديوان الرصافي :٣٤٦.

وخُدش الحياء، وكثرت الرذائل، فالقيمة تتصدر مجدداً؛ لنقض حجج المسوغين سفور المرأة.يقول[1]:

ما في بنات النِّيل من أرَبٍ لذي غَرَضٍ نبيل ... أصْبَحنَ عاباً في الزمان و سَوْأة في شرّ جِيْل

ما هذه الحبرات تَهْفُو في الخَمائل والحقول ... نَكِرَ العفاف ذيُولها و من الخَنَى قِصَرُ الذُّيول

إن ينتسبنَ إلى الحجاب فإنه نَسَب الدخيل ... يختلنَ أبناء الهوى بالدَّلِّ والنظر الخَتول

والطنطاوي –يرحمه الله– يُطوِّع الصورة لنقض حجج السفوريين، فيستخدم مصطلح (لصوص الأعراض) إمعاناً في تعرية مزاعمهم، وتغليب لذاتهم وشهواتهم...، وينطلق من قيمة (الغَيرة) وهي قيمة ترتبط بالدين، وتَسْتَجْلِبُ براهين دينية من مثل قول النبي –صلى الله عليه وسلم– "أتعجبونَ من غيرة سعد لأنا أغيرُ منه والله أغيرُ مني"[2]. يقول الطنطاوي : "...إنَّكم لا تريدون الصحة، ولا الرياضة، ولا المشاركة بالعيد. إنَّما تريدون التلذُّذَ بمرأى أجساد بناتنا باسم العيد، والرياضة، والصحة. إنَّكم لُصُوْصُ الأعراض. ولكن ليس الحق عليكم. الحق علينا نحن آباء الطالبات والطلاب. فنحن عميان لا نُبصِر، خُرْسٌ لا نَنْطِق، حميرٌ لا نَغَار، وإذا استمرت هذه الحال فليس أمامنا إلا اللعنة التي نَزَلَت على بني إسرائيل، على لسان داود وعيسى بن مريم..."[3].

ومنطلقٌ آخر من منطلقات الحجاج يبرز في أدب السفور، وهو منطلق الحقائق، ومداره "على نظريات علمية ، أو مفاهيم فلسفية، أو دينية"[4]. وحين يحضر الدين تَحْضُر القُدْسيَّة، والتسليم والإذعان، ويشعر المُحاجُّ بقوة حجته، وتسليم خصمه، ويجد في

---

١ – ديوان محمد عبدالمطلب : ١٨٤.

٢ – الحديث في: الجامع الصحيح للبخاري، باب من رأى مع امرأته رجلا فقتله، رقم الحديث ٦٦٠٢ :٣/ ٥٦٦

٣ – ذكريات، علي الطنطاوي: ٥/ ٢٥٣–٢٥٤.

٤ –في نظرية الحجاج دراسات وتطبيقات : ٢٤.

الحجة الدينية حجةً لا تُقَاوم، وهذا ما وجدته عند الأدباء المنافحين عن الحجاب، تأمل هذه الأبيات الناضحة بمنطلق الحقيقة الدينية:

-أحمد شوقي[1]:

خُـــــذْ بالكتـــــاب وبالحديـــــــ ـــــث وســـيرةِ الـــسَّلف الثِّقـــات
وارجـــــع إلـــى ســـــنن الخَلِيْـــــ ـــــقَة واتبـــــع نُظـــمَ الحيـــاة

-الرافعي[2]:

أما تخشين أنك في طريقٍ يُزَفُّ بها الحرام على حَلالِك

-محمد عبدالمطلب[3]:

يـــــا هَـــــل دَرَى ذاكَ الغَيُـــــو رُبمـــا جَـــرَى ويـــح الجهـــول
أهـــي التـــي فـــرَضَ الحـــجا بُ لـــصَوْنِهَا شـــرع الرســـول
جعـــل الحجـــاب معـــاذه مـــن ذلـــك الـــداء الوبيـــل
يـــا منـــزلَ القـــرآن نـــو راً للبـــصائر والعقـــول
عميـــت بـــصائر أهـــلِ وا دي النيـــل عـــن وَضَـــح الـــسَّبيل

ومنطلق الحقائق يضم مفاهيم بدهية، أو فلسفية، فأنصار الحجاب عمدوا في حجاجهم إلى بعض الحقائق؛ رغبة في إقناع الطرف الآخر، ومناقشة القضية بمنطق العقل، فالحسن لا يعشق إلا إذا كان ممنوعاً، محجوباً، فحَجْبُهُ يزيد في طلبه، والبحث

---

١ -الشوقيات:١/١٠٣.

٢ - عودة الحجاب :١/١٩١، ولم أجد القصيدة في ديوان الشاعر، ووجدت إشارة إليها في رسائل الرافعي : ٥٧.

٣ -ديوان محمد عبدالمطلب :١٨٧.

عنه، وانكشافه الدائم يُزَهِّدُ قيمته، وهذا ما حاجَّ به الشاعر محمود غنيم حين استخدم الحقيقة العقلية؛ لدعم رأيه. يقول[1]:

لا تَعرِضي الحُسْنَ، يا حسناء، مُبْتَذَلا ... لن تَفْتِني بابتذال الحُسْن إنسانا

لا يُعْشَقُ الحُسْنُ إلا وهْو مُمْتَنِعٌ ... ما أرخص الحُسْنَ مقدارًا إذا دَانا!

وحماسة الزهاوي في تأييد السفور، والرغبة القَّارة في نفسه تجاه هذا الرأي تجعله يبحث عن الحجج العقلية في دعم موقفه، فيجد من الحجج المنطقية سلاحاً يكرره في قصائد السفور، ويسيطر عليه أسلوب (الافتراض) وهو أسلوب يَعْمَدُ فيه إلى المقاولة مع طرف آخر، ومحاجته في رأيه، ثم يحسم الأمر بحجته التي يقفل بها النقاش، ويُعلن الانتصار المُبَطَّن، ويشعر فيها بتمسكه برأيه، وإقناع خصمه. تأمل –مثلاً– قوله[2]:

قال: هل بالسفور نَفْعٌ يُرجَّى ... قلت: خيرٌ من الحِجَابِ السفور

إنَّما في الحجاب شَلٌّ لشعب ... وخَفَاءٌ وفي السفور ظُهُور

كيف يَسْمو إلى الحضارة شَعبٌ ... منه نصفٌ عن نصفه مَسْتُور

ومن منطلقات الحجاج في أدب السفور ما اصطلح عليه منظرو المنهج الحجاجي بـ(المواضع) يقصدون بها تلك المفاهيم المقيدة بالمواضعة الاجتماعية، المرتبطة بالبيئات والأزمنة[3]، فدعاة السفور ربطوا الحجاب بالرجعية، والتخلف، والظلامية، وفي السفور تَقَدُّمٌ، وتمدنٌ، وعصرية. تأمل هذا المنطلق في قول الزهاوي[4]:

---

١ –المجموعة الكاملة :١/ ٨٩٢.

٢ –ديوان الزهاوي :١/٧٢٠.

٣ –انظر: الحجاج أطره ومنطلقاته وتقنياته من خلال مصنف في الحجاج–الخطابة الجديدة، لبرلمان وتيتكاه :٣١١–٣١٢.

٤ – سوانح وآراء في الأدب والأدباء:٢٤٤.

أسْـفِري فالحجـاب يـا ابنـةَ فِهْـرٍ هـو داءٌ فـي الاجتمـاع وَخـيْم
كـلُّ شـيء إلـى التَّجَـددُّ مَـاضٍ فلمـاذا يَقَـرُّ هـذا القـديم

وقد تفطَّن الشيخ الطنطاوي إلى هذا المنطلق الزائف، فوصف دعاة السفور بالكذَّابين "لأنهم ما أرادوا بذلك كله إلا إمتاع جوارحهم، وإرضاء ميولهم، وإعطاء نفوسهم حظَّها من لذَّة النظر، وما يأملون من لذائذ أُخر، ولكنهم لم يجدوا الجرأة على التصريح به فلبَّسوه بهذا الذي يَهْرِفون به، بهذه الألفاظ الطنَّانة، التي ليس وراءها شيء:التقدمية، والتَّمَدن، والحياة الجامعية...وهذا الكلام الفارغ –على دويه–من المعنى ،فكأنه الطَّبْل..."[1].

لقد كانت المنطلقات السالفة هي الألمع في أدب السفور، مع يقيني بوجود منطلقات أُخرى، لكن هذه المنطلقات تمثل عتبة أولى من عتبات الدَّرس الحجاجي "وهي نقطة انطلاق الاستدلال"[2] ومن خلالها يحاول المُحاج أن يؤثر في جمهوره، ليُسَلِّم له بالحجة، ويُذعن له بالبرهان، وبخاصة إذا أدرجنا أدب السفور ضمن الحجاج الحواري "الذي يكون الحوار فيه بين الأطراف حقيقياً"[3] ويحتاج من أطراف الحجاج إلى بذل جهد في البرهنة، والإقناع، ولعل في المبحث التالي ما يسهم في تقريب النصوص إلى المنهج الحجاجي بشكل أكبر.

بنية الحِجَاج :

أدب السفور أدبٌ جدليٌ من الدرجة الأولى، فبين المؤيدين للسفور، والمنافحين عن الحجاب دَارَت نقاشاتٌ فكرية، ومنطقية بين الطرفين في كتابات علمية بحتة، وجدت

---

١ –يابنتي :٢٤.

٢ –في نظرية الحجاج :دراسات وتطبيقات:٢٤.

٣ –الحجاج بين المنوال والمثال "نظرات في أدب الجاحظ وتفسيرات الطبري" :٢٨.

صداها في أدب السفور، فامتزجت العاطفة والأحاسيس عند كل طرف برغبة في الانتصار، وبحثٍ في المزاعم ، ومناقشةٍ للحجج، فتكررت لفظة (زعموا) و (قالوا) وغيرها من اللوازم القولية الدالة على روح المناقشة، والمجادلة بين الطرفين، وهنا سأشير إشارة عاجلة إلى أنواع الحجج بما يسمح به مجال البحث معتمداً إلى حدٍ كبير تصنيف "برلمان" و"تيتكاه" غير متجاوزٍ ما قرَّره الأستاذ الدكتور خالد الجديع بقوله : "...لكنَّ الدرس الحجاجي لم يقف عند هذه الألوان التي أشار إليها بيرلمان، بل كانت هناك إضافة إليها وتوسيع لبعض المفاهيم؛ ذلك أنَّ العلوم الإنسانية تراكمية يضيف فيها اللاحق على السابق، ويستدرك، ويُصَحّح"[1].

كما أشير أيضاً إلى قول الدكتورة سامية الدَّريدي حين عرضت هذا التصنيف، فعقَّبت بقولها:" ...وإن كنا نقرُّ بما لاحظناه سابقاً من إجرائية هذا الفصل، وعدم خلوه من إشكالات أهمها على الإطلاق إمكان ردّ حجة ما إلى أكثر من تصنيف؛ وذلك لانفتاح البيت على أكثر من تأويل، ولطبيعة الحجاج البعيدة عن الصرامة، والدقة اللتين لا نظفر بهما إلا في مجال البرهنة العلمية"[2].

وتبرز في أدب السفور ألوان من الحجج منها:

- **الحجة الدينية** : بَزَغَت المرجعية الدينية في خطاب أدباء السفور؛ لارتباط القضية المُنَاقَشَة بأمرٍ شرعي، ورد في القرآن والسنة، واستحوذ على حديث عدد من العلماء على مرّ العصور، ودار حوله كلامٌ فقهيٌ كثير في القديم والحديث، ومن الممكن

---

١ –قصيدة ابن أسعد في هزيمة نور الدين محمود "قراءة حجاجية" الموقع الشخصي للأستاذ الدكتور خالد بن محمد الجديع، بحث مقبول للنشر ضمن أبحاث مؤتمر لسانيات النص وتحليل الخطاب، جامعة ابن زهر–أغادير.

٢ –الحجاج في الشعر العربي :بنيته وأساليبه، د.سامية الدريدي: ١٩٠.

أن يندرج هذا اللون تحت حجة السلطة التي "تأخذ قوتها ونفوذها من هيبة المتكلم، أو علمه، أو سطوته، أو غير ذلك ، على أن تكون هذه السلطة مُعترفاً بها من قبل جمهور السامعين"[1] . وقد بنى الرافعي حجته في رفض السفور على المرجعية الدينية حين قال[2]:

ولم يَحجِبكِ دين الله إلا ليَحْجِبَ كُلَّ سوء عن جَلالِك

ويقول في إحدى رسائله : "...فأيُّ سفور يريدون –أخزاهم الله– وقد حُجِبَت نساء النبي –صلى الله عليه وسلم– وهو أكمل من مشى على الأرض، ومن يمشي..."[3].

وهذه الحجة استحضرها الطرف الآخر المؤيد للسفور ، فالرصافي يزعم أنَّ الحجاب لا علاقة له بالشرع، وإنما هو من قبيل العادة الاجتماعية، فبنى حجته على استنكار التشديد في الحجاب من قبيل أنَّه عبادة شرعية ، فقال [4] :

وأكبرُ ما أشكو من القوم أنَّهم يَعدُّونَ تشديد الحِجَابِ من الشرع

وأحمد محرم يرد على قاسم أمين بتذكيره بالمرجعية الشرعية، فيقول[5]:

ألا إنَّ بالإسلام داءً مُخامِراً وإنَّ كتاب الله للدَّاء حَاسِمُ

– **الحجج التي تستدعي القيم**: "فالمحتجُّ لتبرير الآراء ، وإثبات المواقف يَعْتَمدُ قيماً ينتقيها بدقة، بحيث تلائم أهدافه الحجاجية، وغايات خطابه المنشودة، فترى المتكلم يرفض فكرة ما بحجة أنها تُعَارِض قيمةً معينة، ويدعو إلى موقف ما باسم

---

١ –كتابة الجاحظ في ضوء نظريات الحجاج :رسائله أنموذجاً ، د.علي محمد علي سليمان:١٠٠.

٢ – عودة الحجاب :١٩١/١، ولم أجد القصيدة في ديوان الشاعر، ووجدت إشارة إليها في رسائل الرافعي :٥٧.

٣ –رسائل الرافعي، ويليه الرسائل المتبادلة بين شيخ العروبة أحمد زكي باشا والأب أنستاس ماري :٥٧.

٤ – ديوان الرصافي :٣٤٤.

٥ –ديوان محرم :٦٥/٢.

قيمة محددة، ويَنْعَى على الخصم سلوكا ما؛ لأنه يتنافى مع قيمة واحدة ، أو مجموعة قيم"[1].

وقد سبق الحديث في المنطلقات الحجاجية عن قيمة الغيرة ، والحياء، والستر، والعفاف ، وغيرها من القيم التي مثَّلت مرتكزاً لتأييد الحجاب، وأنه نابع من هذه القيم الخالدة في نفس الأنثى، واستدار دعاة السفور على هذا النوع، فجعلوا القيم معنوية قارَّة في النفوس، ولا علاقة لها بالمظهر، وقد سبق بيان ذلك في منطلقات الحجاج، فلا داعي للتكرار.

– **حجة التناقض وعدم الاتفاق** : إذ "يدفع الحجاج أطروحةً ما مبيناً أنَّها لا تتفق مع أخرى"[2] وهذه النوع من الحجج توارد في أدب السفور، واعتمد طرفا المُحَاجة على دفع حجج الطرف الآخر، وبيان اختلالها من خلال هذا اللون من البناء، وممن اعتمد على هذا البناء الحجاجي الشاعر محمود غنيم ، وهو بناء ترتفع فيه نسبة الحجية؛ لقيامه على المقارنة والموازنة العقلية بين الأطروحتين، ومما قاله مخاطباً من استحسن مرأى المرأة المتبرجة[3]:

الحُسْنُ في الوَهْم غير الحُسْن تُبْصِرُهُ شَتَّانَ بينهما في الذوق شتَّانا

ومعروف الرصافي يقول[4]:

قد نُنْكِر الفعل لم تألفه عادتنا وإنْ عَلِمنَاه من بعض المباحات

وربَّ شنعاء من عاداتنا حَسُنَت في زعمنا وهي من أجلى الشناعات

---

١ –الحجاج في الشعر العربي :بنيته وأساليبه، د.سامية الدريدي :٢٧٠.

٢ – مدخل إلى الخطابة، أو ليفي روبول : ١٧٤.

٣ –المجموعة الكاملة :٢/٨٩٢.

٤ –ديوان الرصافي :٩٢.

فالرصافي يبني حجته على أطروحة التناقض في العادات الشائعة في المجتمع، ومخالفته لحدود الحلال والحرام، فربَّ شنيع من مألوفنا، غابت شناعته في غياهب الاستحسان، والشيوع المجتمعي، ورب مباحٍ تناسينا إباحته مع هيمنة العادات، فالتناقض بين السائد، والأصل من الحجج التي استخدمها الرصافي في احتجاجه العقلي بوجوب الحجاب، وإنكار السفور.

- **حجة المثل:** يرى بيرلمان وتيتكاه أن للتمثيل قيمة حجاجية؛ ذلك أنه "استدلال قائم على العلاقة بين طرفي الموضوع من ناحية، وطرفي الحامل من ناحية ثانية، وهو مؤد إلى التفاعل بين كلا الطرفين...ينشأ عنه إكساب طرفي الموضوع قيمة ما، وهذه القيمة المكتسبة هي نتيجة لبنية حجاجية اتصالية تولد تفاعلها، وتداخلها قيمة :سلبية كانت أو إيجابية"[1]. والحجة القائمة على المثل تبرز في أدب السفور؛ لتقريب الحجة من ذهنية القارئ، وتصوير خطورة السفور، كما في قول أحمد محرم[2]:

وإنَّ امرءاً يُلقي بليل نعاجه إلى حيث تَسْتَنُّ الذئاب لظالم

وأحمد شوقي يستخدم ضرب المثل؛ لتأييد موقفه تجاه حرية المرأة، ويصنع ثنائية العزلة، والحرية لتأييد حجته، ويرمز للمرأة بالطير، فيقول[3]:

ياطير والأمثال تُضربُ للبيبِ الأمثلِ دُنيَاكَ من عاداتها ألا تكون لأعزَلِ

أو للغبي وإن تعلَّل بالزمان المقبل جُعِلت لحرٍ يُبتَلَى في ذي الحياة ويَبتَلي

١- كتابة الجاحظ في ضوء نظريات الحجاج :رسائله أنموذجاً، د.علي محمد علي سليمان:١٠٢.

٢ -ديوان أحمد محرم :١/ ٣٥.

٣ -الشوقيات :١/ ١٧٩.

والطنطاوي يخاطب المتلقي خطاباً إقناعياً بأهمية الحجاب، ويقارن بين المرأة الشرقية، والمرأة الغربية، فالأولى استترت فعزَّت، والثانية تكشَّفَت فهانت، وهنا يبحث عن شحنة جديدة من الإقناع، فيستخدم حجة المثل وكأنها حاسمة القول، وفصل الخطاب، فيقول: "...لأنَّ كلَّ معروض مُهَان"[1].

-**الحجة السببية**: للحجاج السببي "قوة تَحمِل على الاقتناع قد يُظَن أنها لا تُرد"[2] وهذه الحجة قائمة على تتابع ثابت للأحداث تحيل إلى رابط سببي[3]، وهذه الحجة تأتي في أدب السفور في دعم رأيٍ، وتسويغ وجهة نظر، كقول محمود غنيم[4]:

لاتعرضي الحُسنَ يا حسناءُ مُبتَذَلاً ... لن تَفتِني بابتذال الحُسن إنسانا
لا يُعشَقُ الحُسنُ إلا وهو مُمتَنِعٌ ... ما أرخص الحسنَ مِقْداراً إذا دَانَا

فالبيت الثاني " لا يُعشَقُ الحُسنُ..." هو حجة سببية قائمة على دعم رأي الشاعر في حجاب المرأة ، واحتشامها، وتغير وهمها في لفت الانتباه، وفتنة الرجال، ومن ثم تأتي الحجة على هذا الرأي في البيت التالي ؛ ذلك أن الحسن لا يُرغب فيه إلا إذا امتَنَع، واستتر، فتشوفت النفوس لرؤيته، وتحيَّنت الفُرَص رغبة إليه، أما ابتذاله ففي دنوه من العيون ، وانكشافه في المجتمع، واستسهال الوصول إليه...

---

١ -مع الناس :١٢٦.

٢ -الحجاج ، كريستيان بلانتان، ترجمة عبدالقادر المهيري: ٧٤.

٣ -الحجاج في الشعر العربي بنيته وأساليبه، د.سامية الدريدي: ٢١٥.

٤ -المجموعة الكاملة: ٨٩٢/٢.

والموقف المتذبذب لأحمد شوقي تجاه السفور يجعله يتخذ من الطير رمزاً للمرأة، ويجعل السجن في الوكر، والحرية في السماء، ثم يعلن موقفه تجاه حرية المرأة، فيقول[1]:

حُرِيَّةٌ خُـلِقَ الإنا ثُ لها كما خُلِقَ الذكور

والزهاوي يستخدم الحجة السببية في حماسته المندفعة إلى تأييد السفور، ويستخدم ألوانا من الحجج بحثاً عن تحقيق رغبته في كسر قناعة المجتمع بأهمية الحجاب، ومن ذلك قوله[2]:

أسفري فالحجاب يا ابنة فهرٍ هو داء في الاجتماع وخيم
كلُّ شيء إلى التجدد ماضٍ فلماذا يَقِرُّ هذا القديم

فالزهاوي يستخدم فعل الأمر (أسفري) في دلالة على تمسكه برأيه، وحماسته الشديدة له، ويزيد التهوين والاستفزاز لمعارضيه باستخدام لفظة (الداء) التي تشي بمرض مستشرٍ في جسد المجتمع، ويبحث عن الإقناع؛ فيستخدم العلة السببية القائمة على أن التطور والتجدد هما سُنَّة الحياة، فإذا كان كل شيء ماض على هذا السبيل فلماذا يبقى الحجاب؟! وهو –كما يزعم– عادة قديمة يجب أن تجتاحها رياح التجديد، والتغيير.

حجاجية الصورة: لست –هنا– بصدد التعريف بالصورة عند القدماء، والمحدثين من عرب أو غربيين، ولكني أشير إلى أهمية الصورة في الدرس الحجاجي فهي "من أهمِّ التقنيات التي يتوسَّل بها الخطاب في التأثير في المتلقين وإقناعهم"[3].

---

١ –الشوقيات :١٦٧/٢.

٢ – سوانح وآراء في الأدب والأدباء:٢٤٤.

٣ –كتابة الجاحظ في ضوء نظريات الحجاج "رسائله أنموذجاً" : ٢٤٢

فالمُحَاجُّ يبحث عن الحجج في دعم موقفه، وتأييد رأيه، وتأتي الصورة بوسائلها العديدة (التشبيه/الاستعارة/الكناية...) لتزيد من المقايسة والإقناع للمتلقي، وتعمق عمليات التدليل المقصودة في الحجاج. يقول الدكتور كمال الزماني :"إنَّ فهم الصورة باعتبارها وسيلةً بلاغية ذات وظيفة حجاجية تهدف إلى إقناع المتلقي بفكرةٍ من الأفكار، أو معنى من المعاني، كان الهدف الأساس الذي تتوقف عنده باقي الوظائف الأخرى، أي بعبارة أخرى لم تعد الصورة تزين لمجرد التزيين، أو تقبّح لمجرد التقبيح، أو تصف لمجرد الوصف، أو توضّح لمجرد التوضيح، أو تُبَالِغ لمجرد المبالغة، بل أصبحت تؤدي كل هذه الوظائف لخدمة وظيفة أسمى هي ما سمَّاه أوليفي روبول :فنَّ الإقناع"[1].

وقد رصدت عدداً من الصور في أدب السفور نبعت من رغبةٍ مُلحة من أحد الأطراف في دعم حجته، أو نقض حجة خصمه، وجاء عددٌ منها للتبشيع، والاستهجان الداخل ضمن إطار المحاججة، والاستمالة، فالشيخ علي الطنطاوي يستخدم الصور؛ لدحض حجج خصومه، ويرى أنَّ حديثهم عن السفور والمساواة حديث كأنه الطبل[2]، في رغبة منه لتصوير خطاباتهم الطنَّانة التي يستخدمون فيها ألفاظاً موهمة كالتقدمية، والتمدن...بأنها ألفاظٌ خاوية من الحقيقة، زائغة من الحق، يغطون فيها الباطل والأهواء بزخارف الأقوال والمصطلحات .

وفي مقام آخر يستخدم الطنطاوي الصورة للمحاجة، فتأتي في سياق تفنيد حجة الخصوم الداعين إلى الكشف والسفور، فيقول : "إنكم لا تريدون الصحة، ولا الرياضة، ولا المشاركة بالعيد. إنما تريدون التَّلذذ بمرأى أجساد بناتنا باسم العيد، والرياضة، والصحة.

---

١ –حجاجية الصورة في الخطابة السياسية لدى الإمام علي، د.كمال الزماني:٧٤.

٢ –يابنتي:٢٤

إنَّكم لصوص أعراض [1]. فاللصوصية لفظة مُنَفِّرَة، وحين تُستَعار لدعاة السفور، تسري إلى ذهن المتلقي شحنة سلبية كارهة لهذا السلوك المشين، وتقترن بسرقة البصر لأجساد النساء، وهنا يكون للصورة أثر في تفنيد الحجج، وتبشيع رأي الخصم، وسلوكه.

وفي المقابل يستخدم أنصار السفور الصورة لتزيين رأيهم، ويجعلون من الصورة رمحاً يرمون به خصومهم، فالرصافي وغيره يجعل الحجاب عادة من العادات التي أعاقت المجتمع المسلم، وفي سياق برهنته على أنَّ الإنسان أسير عادته، وأنه محتاج إلى مراجعة موقفه من عاداته، ومنها عادة الحجاب. يقول[2]:

كل ابن آدم مقهور بعادات ... لهنَّ ينقاد في كل الإرادات

...إنَّ العوائد كالأغلال تجمَعُنا ... على قلوبٍ لنا منهن أشتات

ويتجه في صوره لتحريك كوامن النساء، واستثارة مشاعرهن في القرار في البيوت، والإلزام بالحجاب. فيقول[3]:

وقد ألزموهنَّ الحجاب وأنكروا ... عليهنَّ إلا خَرْجَة بغطاء

أضاقوا عليهنَّ الفضاء كأنهم ... يَغارون من نور به وهواء

وقد زَعموا أن لَسْنَ يَصلُحن في الدُّنَى ... لغير قرارٍ في البيوت وباء

فماهنَّ إلا متعة من متاعهم ... وإن صُنَّ عن بيع لهم وشراء

فهو يوجه خطابه إلى خصومه، ويعمد إلى الاستهزاء برأيهم، ويبالغ في فهم خطابهم، فيجعل المرأة حبيسة البيت، قطعة من المتاع... والبؤرة التصويرية في النص تبدو في قوله " ..كأنهم يغارون من نور به وهواء" فهي صورة تدعو للاستبشاع،

---

١ –ذكريات : ٥/ ٢٥٣.

٢ –ديوان الرصافي :٩٢.

٣ –السابق : ٣٣٣.

والتضييق، والدونية من جانب الرجل المتسلط في رغبة صريحة من الشاعر في تأكيد موقفه الرافض للحجاب.

والزهـــاوي يـــصور الحجـــاب بـــ "الحـارس الكـذاب" حـين قـال[1]:

مزّقيـــه واحرقيـــه بـــلا ريـــثٍ فقـــد كـــان حارســـا كـــذّابا

وهو يأتي بالحارس ويستجلب المتلقي الصدق والأمانة والحفظ، ثم تختلُّ المعادلة بوصفه بالكذّاب بهذه الصيغة الدالة على المبالغة، وحينئذ يحاول المتلقي أن يُوَفِّقَ بين الحجاب، والحارس الكذاب، في مقابل الحجج التي تصف الحجاب بالحارس الأمين... يحرسها من الاعتداء على عرضها، وفضيلتها، ويبدِّد الفتن التي تنشأ من تبرجها، وأحسب أن هذه الصورة الهازئة تأتي في سياق توهين حجة الخصم، واستمالة المتلقي، ومحاولة خلخلة ثقته بحراسة الحجاب للفضيلة.

ويستثمر الزهاوي لفظة السفور ، والحجاب؛ ليقرن الأولى بالصبح، والثانية بالليل في صورة لا تخلو من البساطة، وقلة العدول، فتأتي الحجة التصويرية في أوهى صورها، وأضعف حالاتها ، فهو يخاطب مجتمعات مسلمة، تعرف قيمة الحجاب، ومآلات السفور، وتعرف أين يكون الضياء؟ وأين تكمن الظلمة؟ [2]:

أسفري فالسّفور للنّاس صبح

زاهر و الحجاب ليل بهيم

إنَّ أدب السفور، وتجاذباته يكشف أن غاية الأدب تجاوزت حدَّ الإمتاع إلى التأثير، والاستمالة، وبثِّ الفكر، وهو مؤشر مهم على أهمية الأدب في بناء المجتمعات، وتكوين

---

١ –هذه القصيدة نشرت في مجلة البلاغ الأسبوعي، يوم الجمعة ٢٦ أغسطس ١٩٢٧م بتوقيع "الشاعر الصغير" وهي لجميل الزهاوي.

٢ – سوانح وآراء في الأدب والأدباء، د.بدوي طبانة: ٢٤٤.

الأفكار، وما يحمله من شحنات إيجابية مؤثرة، وأخرى سلبية مقلقة، فالأدب –كما يقول العقاد ت ١٩٦٤م– "رسالة عقلٍ إلى عقول، ووحي خاطر إلى خواطر، ونداء قلبٍ إلى قلوب، وإن الأدب في لبابه قيمةٌ إنسانية، وليس بقيمة لفظية"[١].

وقد مثلت قضية الحجاب والسفور مثالاً من أمثلة تأييد رأي، ونقض آخر، وكان مسرحاً لمعارك أدبية بين الأدباء المحافظين، والمستغربين، وإذا اجتمع للأديب –مع أدبه– فكرٌ يتبناه، ومبدأ يؤمن به فإنه سيُنَاصِر قضيته، ويستشعر المتلقي في كتاباته، ولعل الروايات اليوم تمثل أنموذجاً يمكن الوصول من خلاله إلى أنماط التفكير المجتمعي.

إنَّ الواجب الذي يمليه الإيمان بمسؤولية الكلمة يُحَتِّم العناية بما يُكتب للجمهور، إضافةً إلى توعية الأدباء في تحمل مسؤوليتهم تجاه إبداعهم، كما أن مسؤولية تربية الأجيال تقتضي انتقاء النماذج الهادفة بدقة وعناية، وتقديم الإبداع المُناسب فكراً وعاطفة.

إنني أزعم أنَّ المنهج الحجاجي ناجعٌ في قياس مدى تأثير الأدب، واستمالته للجماهير، وقدرته على تقديم رأيٍ على آخر، وهو مثمر في أدب المعارك، والخلاف، للكشف عن استخدام الأدوات الأدبية في الإقناع، والتدليل.

ويبقى ميدان البحث والتنقيب في أدب السفور باحة واسعة للدارسين والنقاد؛ لاستخراج نتائج أُخَر، فهو ديوانٌ كبيرٌ، وفرصةٌ لمجسَّات نقدية ماتعة، ولعل في هذا البحث ما يفتح شهية أرباب الأدب لاستكمال المشوار، والله الموفق، والهادي إلى سواء الصراط.

وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

* * *

---

١ –أنا، عباس محمود العقاد: ١٥٥.

المراجع :

١. أباطيل وأسمار، محمود شاكر، مكتبة الخانجي–القاهرة، ط:٣، ١٤٢٦هـ/٢٠٠٥م.

٢. الإبهام في شعر الحداثة "العوامل والمظاهر وآليات التأويل" د.عبدالرحمن محمد القعود، عالم المعرفة، مارس ٢٠٠٢م.

٣. الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر، محمد محمد حسين، مؤسسة الرسالة –بيروت، ط :٦ ، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م .

٤. الأجوبة المسكتة، لابن أبي عون، تحقيق مي أحمد يوسف، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية–القاهرة، ١٩٩٦م.

٥. أزمة العصر، محمد محمد حسين، مؤسسة الرسالة، ط:٣، ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م.

٦. الإمتاع والمؤانسة، لأبي حيان التوحيدي، تحقيق أحمد أمين، أحمد الزين، دار مكتبة الحياة د.ت.

٧. أنا، عباس محمود العقاد،المكتبة العصرية –بيروت، د.ت.

٨. الانحراف العقدي في أدب الحداثة وفكرها، د.سعيد بن ناصر الغامدي، دار الأندلس الخضراء – جدة، ١٤٢٤هـ /٢٠٠٣م .

٩. البيان والتبيين، الجاحظ، تحقيق :عبدالسلام هارون، مكتبة الخانجي–القاهرة، ط:٧، ١٤١٨هـ/ ١٩٩٨م .

١٠. التحرير الإسلامي للمرأة "الرد على شبهات الغلاة" د.محمد عمارة، دار الشروق– القاهرة، ط :١٤٢٣ه/٢٠٠٢م.

١١. ثقافة الأسئلة مقالات في النقد والنظرية ، د.عبدالله الغذامي، النادي الأدبي بجدة، ط:١، ١٤١٢هـ/١٩٩٢م.

١٢. الجواهري في العيون من أشعاره، محمد مهدي الجواهري، دار طلاس للدراسات والترجمة والنشر–دمشق، ط:٤، ١٩٩٨م.

١٣. الحجاج ، كريستيان بلانتان، ترجمة عبدالقادر المهيري، المركز الوطني للترجمة–تونس، ٢٠٠٨م.

١٤. الحجاج بين المنوال والمثال"نظرات في أدب الجاحظ وتفسيرات الطبري"مسكيلياني للنشر والتوزيع–تونس، ط:١، ٢٠٠٨م.

١٥. الحجاج في الشعر العربي :بنيته وأساليبه، د.سامية الدريدي، عالم الكتب الحديث–إربد، ط:٢، ١٤٣٢هـ/ ٢٠١١م.

١٦. الحجاج في القرآن من خلال خصائصه الأسلوبية، د.عبدالله صولة، دار الفاربي–بيروت ،ط ٢، ٢٠٠٧م.
١٧. الحجاج مفهومه ومجالاته، إعداد حافظ إسماعيلي، دار الروافد الثقافية،ط:١، ٢٠١٣م.
١٨. حجاجية الصورة في الخطابة السياسية لدى الإمام علي، د.كمال الزماني، عالم الكتب الحديث ، الأردن، ط:١، ٢٠١٢م
١٩. دفاعاً عن المرأة د.جابر عصفور ، الهيئة المصرية العامة–القاهرة، ٢٠٠٧م.
٢٠. دلائل الإعجاز، لعبدالقاهر الجرجاني، تعليق :محمود شاكر، دار المدني–جدة، ط:٣، ١٤١٣هـ /١٩٩٢م.
٢١. ديوان المعاني، لأبي هلال العسكري ، تحقيق: أحمد سليم غانم، دار الغرب الإسلامي،ط:١، ١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م.
٢٢. ذكريات، علي الطنطاوي، دار المنارة–جدة ، ط:١، ١٤٠٥هـ /١٩٨٥م .
٢٣. رسائل الرافعي، ويليه الرسائل المتبادلة بين شيخ العروبة أحمد زكي باشا والأب أنستاس ماري، د. ت ، الدار العمرية .
٢٤. الصحافة والأقلام المسمومة، أنور الجندي، دار الأرقم–الرياض ، ط:١، ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٣م.
٢٥. العدوان على المرأة في المؤتمرات الدولية، د.فؤاد العبدالكريم، سلسلة مجلة البيان،ط:١، ١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٥م.
٢٦. العوامل الحجاجية في اللغة العربية، د.عز الدين الناجح، مكتبة علاء الدين للنشر والتوزيع–صفاقس، ط:١، ٢٠١١م.
٢٧. عودة الحجاب ،محمد إسماعيل المقدم، دار طيبة للنشر والتوزيع، ط:١٠، ١٤٢٧هـ /٢٠٠٧م.
٢٨. فن الشعر، إحسان عباس، دار الشروق للنشر والتوزيع–عمان ، ط:٥، ١٩٩٢م.
٢٩. في تأريخ الأدب : مفاهيم ومناهج، حسين الواد، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ط:٢ ،١٩٩٣م.
٣٠. في نظرية الحجاج:دراسات وتطبيقات، عبدالله صولة،مسكيلياني للنشر والتوزيع–تونس، ط:١، ٢٠١١م.
٣١. قصيدة ابن أسعد في هزيمة نور الدين محمود "قراءة حجاجية" الموقع الشخصي للأستاذ الدكتور خالد بن محمد الجديع ،بحث مقبول للنشر ضمن أبحاث مؤتمر لسانيات النص وتحليل الخطاب، جامعة ابن زهر–أغادير

٣٢. قولي في المرأة لمصطفى صبري، دار ابن حزم ، د.ن .
٣٣. كتابة الجاحظ في ضوء نظريات الحجاج :رسائله أنموذجاً ، د.علي محمد علي سليمان، دار الفارس للنشر والتوزيع، ط:١، ٢٠١٠م.
٣٤. ما الأدب، سارتر، ترجمة محمد غنيمي هلال، دار العودة–بيروت،١٩٨٤م.
٣٥. مآخذ اجتماعية على حياة المرأة العربية، د.نازك الملائكة، دار الفضيلة، ط:٣، ١٤٢١هـ /٢٠٠٠م.
٣٦. المرأة :أزمة الهوية وتحديات المستقبل إحسان الأمين، دار الهادي–بيروت، ط:١، ١٤٢٢هـ/٢٠٠١م.
٣٧. المرأة بين الموروث والتحديث .زينب رضوان، الهيئة المصرية العامة للكتاب–القاهرة، ٢٠٠٤م.
٣٨. مع الناس، علي الطنطاوي، دار المنارة–جدة، ط:٣، ١٤١٦هـ / ١٩٩٦م.
٣٩. الملابس في الشعر الجاهلي، د.يحيى الجبوري ، دار الغرب الإسلامي–بيروت، د.ن .
٤٠. من صيد الخاطر في النقد الأدبي، د.وليد قصاب ، دار البشائر–دمشق، ط:١، ١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م.
٤١. نحو منهج إسلامي في رواية الشعر ونقده، د.مصطفى عليان، دار البشير–عمان، ط:١، ١٤١٢هـ/١٩٩٢م.
٤٢. النص والسياق (استقصاء البحث في الخطاب الدلالي والتداولي) ترجمة :عبدالقادر قنيني، أفريقيا الشرق–المغرب،٢٠٠٠م.
٤٣. نظرات في الأدب، أبو الحسن الندوي،دار البشير–عمان، ط:١، ١٤١١هـ/ ١٩٩٠م.
٤٤. هل يكذب التاريخ، عبدالله الداود، د.ن، ط:١، ١٤٢٨هـ/٢٠٠٧م.
٤٥. وهج المعاني: سيميائيات الأنساق الثقافية، سعيد بنكراد، المركز الثقافي العربي–الدار البيضاء ، ط:١، ٢٠١٣م.
٤٦. يابنتي، علي الطنطاوي، دار المنارة–جدة، ٢٠٠٩م.

* * *

42- Translated by Abdulkadir Kineni,(Al-nassu wa el-siyaq : Istiqsa'el-bahth fi el-khitab el-dalali wattadawuli), Afriqia el-sharq. – Morocco,2000.

43- Abul hasan el-nadawi,(Nazratun fi el-adab), dar el-bashir, - Amman, p. 1, 1411H/1990.

44- Abdullah Al-Dawood ,(Hal Yakzibu el-tarikh), d.n., p. 1 , 1428H/ 2007.

45- Saeed Binkirad, (wahjul ma'ani : simiya'eyat el-ansaq el-thaqafiyah), Almarkaz el-thaqafi el-arabi – Cassablanca, p. 1 , 2013.

46- Ali Al-Tantawi,(Ya binti), dar el-manarah – Jeddah, 2009.

* * *

31- . Khlid bin Mohammed Al-juda'e, (Qra'at Hajjajiyah) Omar bin Asad's poem in defeat of Nureddin Mahmoud, accepted research for publication in the conference on Text Linguistics and Discourse Analysis, Ibn Zuheir University- Agader.

32- Mustafa Sabri,(Qawli Fi el-mara'h),dar in hazm, d.n.

33- Dr. Ali Mohammed Ali Suleiman,(Kitabatu el-jahiz Fi dow'e nazariyat Al-hajjaj: His thesis as a model, dar el-faris fo Publishing &Distribution, p.1,2010.

34- Sartre, translated by Mohammed Guneimi Hilal,(Mal adab), dar el- awdah – Beirut,1984.

35- Dr. Nazik Al-malaikah,(Ma'akhzu Ijtimaeyyah ala hayat el-mara'h el-arabiyah), dar el-fadilah, p.3, 1421H/2000.

36- Ihsan Al-amin,(Almara'h : Azmat el- hawiyah wa tahaddiyaat el-mustaqbal), dar el-hady – Beirut, p.1, 1422H/2001.

37- Zeinab Ridhwan ,(Almara'h Beina el-mowruth wattahdith), Al-heia'h el-masriyyah el-ammah Lil kitab – Cairo, 2004.

38- Ali Al-Tantawi,(Ma'annas), dar el-manarah – Jeddah, p.3,1416/1996.

39- Dr. Yahya Al-jaburi,(Almalabis Fi el-shi'er el-jahili), dar el-garb el-islami, - Beirut, d.n.

40- Dr. waleed Qassab,(Min seid el-khatir Fi el-naqd el- adabi), dar el-basha'er – Damascus, p.1,1424H/2003.

41- Dr. Mustafa Alyan,(Nahwa manhajin islami fi riwayat el-shi'er wa naqdihi), dar el-bashir – Amman, p. 1 , 1412H/1992.

21- Abū Hilāl Al-‘Askarī,(Diwan Al-Maa'ni), Revised by Tahqeeq Ahmed Saleem Ghanim, Dar el-Gharb el-Islami, p. 1, 1424H / 2003GC

22- .Ali Al-Tantawi,(zikrayat)), Dar Al-Manarah, Jeddah, p.1, 1405H/1985Gc.

23- (Rasa'el Al-Rafi'ey, Wa Yalihi Al- Rasa'el Al-Mutabadalah beiyn Shekh Al-Urubah Ahmed Zaki Basha Wa Al'ab Enstas Mary), d.t , Al-Dar Al-umariyah.

24- Anwar Al-Jundi, (Al-Sahafah Wa El-aqlam Al-Masmumah), Dar Al-Arqam, Riyadh, p. 1, 1424H/2003GC.

25- Dr. Fua'd Al-Abdulkarim,(Al-Udwan Ala Al-Mara'h Fi Al-Mu'etamarat el-Dowliyya), series of Al-Byan magazine, p. 1, 1426H/ 2005GC.

26- Dr. Ezzeddin Al-Najih, (Al-Awamil Al_Hajajjiyah Fi el-llugah el-Arabiyah), Ala'uddin for Publishing and Distribution Library , p.1, 2011GC.

27- Mohammed Esmail Al-Moqaddim,(Owdat Al-Hijab), Dar Taybah for Publishing and distribution, , p. 10, 1427H/2007GC.

28- Ehsan Abaas, (Fann el-shi'er), Dar el-shuruq for Publishing and Distribution, Oman, p.5, 1992GC.

29- Husien Al-wad, (Fi Tareekh Al-Adab: Mafahim Wa Manahij), Arab Institute for Research and Publishing , p.2, 1993EC.

30- Abdulllah Sowlah,(Fi Nazariyyat El-Hajjaj, Dirasa't Wa Tatbiqa't) Meskiliyani For Publishing and Distribution, Tunisia, p. 1, 2011GC.

11- Dr. Abdullah Al- Gidami,(Thaqafat el-as'elah: maqalat fi el-naqd wannazriyah), Al-nadi el-aldabi, Jeddah, p.1, 1412H/1992GC.

12- Muhammed Mahdi Al-jawahiri,(Al-jawahiri fi el-auyun min asha'rihi), dar Talas for education, translation & Publishing- Damascus, p.4, 1998GC.

13- Christian Plantain,Translated by Abdulkadir Al-muheri,(Alhajjaj), Almarkaz (National Translation Center).Tunisia, 2008GC.

14- (Alhajjaj bein el-minwal walmithal " Nazatiyyat Fi adab el-jahiz watafsirat el-tabari"), (Miskiliani for publishing and distribution,- Tunisia,2008GC.

15- Dr. Samia Al-dredi,(Al-hajjaj Fi el-shi'er el-arbi, Binyatuhu wa asalibuhu) , Alam kutub el-hadith,-Erbid , p.2, 1432H/2011GC.

16- Dr. Abdulllah Sowlah, (Al-hajjaj fi el-qura'n min khilali khasai'sihi al-uslubiyya), Dar-alfarabi, Beirut, p. 2, 2007GC.

17- Hafiz Esmaili, (Al-Hajjaj Mafhumuhu wa Majalatuhu), Dar el-rawafed el-thaqafiya, p. 2, 2013GC.

18- Dr. Kamal Al-Zamani: (Hajjajiyyat El-surah Fi Al-Khitabah el-siyasiyah lada Al-Imam Ali) , Alam el-kutub el-Haditha, Jordan, p. 1, 2012GC.

19- Dr. Jabir Usfur: (Difa'an ani el-Mara'h), Alheia el-masriya el-ammah , Cairo, 2007GC.

20- Abdul-Qahir Al-Jurjani, (Dala'el El-I'ejaz),Ta'eleeq comment by Mahmud Shakir, Dar Al-madani, Jeddah, p . 3, 1413H /1992GC.

List of References:

1- Mahmud Shaker : (Abateel wa asmar) Al- khanji Library- Cairo, p.3, 1426H/2005GC

2- Dr. Abdurrahman Mohammed Al-qu'ud : (Al –Ebhamu Fi shi'er al-hadathah , Al-awamil walmazahir wa aliyat el-ta'eweel)), Alem el-ma'erifah , March 2002GC

3- Mohammed Mohammed Husein : (Al-Ettijahatel-wataniya Fi el-adab el-mu'asir) (Al-risalah estabilishment) – Beirut, p.6, 1403H/1983GC

4- Ibn Abi Own & Rivised by Mey Ahmed Yousuf : (Al ajwibah El-musakkitah), Eein- for Educational, Humanitarian and Social Research – Cairo, 1996GC.

5- Mohammed Mohammed Husein : (Azmat el-asr) (Al-risalah estabilishment), p.3, 1407H/1987GC.

6- Abu Hayyan Al- towhidi & Rivised by Ahmed Amin , Ahmed el-zein, (Al – emta'u walmu'anasah), Dar maktabat el-hayat, d.t.

7- Abbas Mahmud el-aqqad , (Ana) , almaktabah el- asriyah – Beirut, d.t.

8- Dr. Saeed bin nasir Al-ghamidi, (Al-inhiraf el-aqadi fi adab el-hadathah wa fikriha), dar el-andalus el-khadhra'e)- jeddah,1424H/2003GC.

9- Al-jahiz, Rivised by Abdussalam Harun,(Albayan wattabyin), Maktabat el-khanji – Cairo, P. 7, 1418H/1998GC.

10- Dr.Mohammed Amarah,(Attahriru el-slami Lilmara'h "Arraddu ala shubuhat el-gulat"), Dar el-shuruq, Cairo, P: 1423H/2002GC.

Grooming and Adornment In Modern Arabic Literature A Study on the Influence of Literature OnDirecting and Influencing Social Issues

Dr Abbdelkarim Ben Abdallah AlAbdelKarim
Department of Literature College of Arabic Language
Imam Ibn Saud Islamic University

Abstract:

This study aims at displaying the dispute between literary men in the Veil and Adornment issues in modern age. The researcher displayed the different trends of the Arab poets on the matter , and stressed on the influence of literature in directing public opinion and social issues.

The Researcher used the argumentation method to measure the influence of literature in directing societies. He also found that the argumentation method is effective and useful in dealing with different opinions. He noticed that the artistic values shrink and become less important when the thoughts dominate over passions.

The researcher hopes that his study will open the way to other researchers to deal with the Issue in wider ranges.